

رواية

الدخيل أو التشاؤم

رحلة بحث مجحفة عن العدالة

الحدادي كريم
و
ليلى شاهد

منشورات الطيوب
سلسلة الكتاب العربي

الحدادي كريم

و

ليلى شاهد

الدخيل أو التشاؤم

رحلة بحث مجحفة عن العدالة

رواية

"فلنبتعد ولننفصل عما يرغمنا أن نكرر اللاءات دون هوادة."

عبد السلام بن عبد العالي- الفلسفة أداة للحوار.

الكتاب: الدخيل أو التشاؤم (رواية)

الكاتبة: الحدادي كريم وليلى شاهد

الناشر: موقع بلد الطيوب (منشورات الطيوب)

سلسلة الكتاب العربي 20

صورة الغلاف:

التصفيف والإخراج: موقع بلد الطيوب

www.tieob.com

info@tieob.com

2022

الجزء الأول

الفوضى

الفصل الأول: الاتهام

لم أكن سوى سحابة، بركان انتهى بها المطاف إلى أن تمطر في صحراء "الأرزونا" بعيدا على الحياة. لا لم أكن كذلك. بل في الواقع لا أعلم. كل ما أعرفه هو إنني أحاول تعقب بعض الإشارات، لعلها تدلني على سبيل النجاة. النجاة؟ لا فأمثالي، ليسوا سوى حمقى، يتحاشاهم الكل. يتفاداهم. يهرب منهم.

كل ما أعرف، هو أن قابليتي للكذب أو بصيغة أخرى قابلية تكذيب ما أقول، قائمة للغاية، أظن أنه لا فائدة من الصدق، ولا جدوى من التصديق. أظنه السادس والعشرين من "كانون الأول"، حيث تصّدر خبر اغتيال رئيسة الوزراء، صفحات الجرائد وعناوين الأخبار على أمواج الراديو.

لم أكن حينئذ على دراية كافية بالموضوع، لم أعره اهتماما. كل ما كان يشغل بالي، هو عيد ميلاد "كورين". مر وقت طويل على عدم تفرغي لهذا النوع من المناسبات. كنت ذو كبرياء انفصامي غالبا ما يحول دون قبولي لدعوات الأعراس التقليدية وحفلات رأس السنة، التي غالبا ما تنتهي سيناريوهاتها بالدموية والفوضوية غير المؤسس لها. إذ تجد على المثال شبابا في مقتبل أعمارهم يدخرون من كل مسكرو مهلوس ما لا يكفيهم لساعات متتالية وكأنهم يخططون للانتحار. لم أكن من هذا الصنف من البشر. كما إننا نختلف، لحسن الحظ، في طرق التفكير. وهذا أمر مذهل.

لم أتلق أي مكالمة ذلك اليوم؛ حتى" كورين" التي اعتادت أن تهاتفني عند كل تنهيدة، لم تتصل بي. لأتفاجأ برجلي، أمن يطرقان باب مكتبي الزجاجي الشفاف، بنوع من السخط والضجر. لم أكن على علم بما يجري آنذاك. لقد كنت منشغلا بتوقيع وترتيب ثلة من الملفات وبرمجة عدد من المواعيد. "ما الذي جاء بالأمن إلى هنا؟ ومن خول لهم ذلك؟"

منذ حصولي على هذه الوظيفة، لم أر ولم أعتد هذه الإطلالة البوليسية أمام مقر عملي. تضاربت الأفكار والفرضيات على

مخيلتي بسرعة، أكاد أن أعرفها بالقصوى، هي الأخرى كانت ذات طابع جديد، غريب، دخيل عن السرعة الاعتيادية. المعتادة. إن ما زاد الطين بلة هو إنني أعرف تمام المعرفة هذان الرجلان. الأول يدعى "كانون"، وهو شاب في الثلاثينيات من عمره، يعيش في شقة "اقتصادية" تطل على شقتي غير الاقتصادية.

لقد كان من النوع الروتيني، الكئيب، الذي لا يفارق قنينة الزجاج الخمرية، حيث لا مجال لقراءات روحانية بغرفته، سوى موسيقى "روك" صاخبة، تتضارب كلماتها داخل الغرفة. لم نكن في الواقع جيرانا حتى يحترمني أو يحس أحدنا بنوع من الحاجة للآخر. لقد كان، ربما بمجرد أنه رجل أمن، يتصرف بنوع من التعالي والسلطوية تجاه من لا يرتدي زي الشرطة. أو ربما لم يكن على علم بأنني أكثر سلطة منه. وذلك لأنني أرفض تلك السلطة السخيفة التي أسندت إلي في ظرف بريدي يخول لي التعالي عن العامة.

كنا عندما نتقابل صدفة، نلقي التحية على أنفسنا في أنفسنا، دون أدنى وسيلة لغوية مباشرة وكأننا لا نعرف بعضنا البعض.

أما الشرطي الآخر، و يدعى "أيار"، فهو ابن خالة " كورين" سبق له التقدم لطلب يدها لترفض تكرارا، لداعي رغبتها في إتمام دراستها في إحدى الجامعات الأمريكية ؛ و من البديهي أنه لن تنجح علاقتهما ،لاسيما أنها زوجية ؛ حتى لو كان الرجل في أعلى درجات الثراء، الجمال والحسن لن تتكلل محاولته لإقناع طالبة علوم سياسية بالزواج به، بالنجاح .إنه لأمر مستحيل، فحتى و إن تخلت عن أمنيتها ، لن يغير ذلك شيئا، بل ربما ستبحث عن أمنية أخرى بين رفوف مكتبتها، مراسلاتها الطفولية أو في الفراغ .ستظل تفكر فيها، تتخيل وتسرح بعيدا عن عالمها الواقعي .ستمل المكوث في المنزل، تتنقل من غرفة إلى أخرى، من المطبخ إلى الحديقة ومنه إلى السرير. ستنتظر عودة زوجها وكأنها تنتظر شبحا. ستبادله أطراف الحديث قليلا، سيتناولان العشاء وينامان. ثم يستيقظان ليبدأ الزوج دور الشبح وتسير الزوجة في نفس النهج تتعقب أمنيتها المجهولة حتى منتصف الليل. يطرق الباب، يفتح ثم يغلق، يتم تبادل أطراف الحديث يتم تناول الطعام، يتم الخلود إلى النوم.

لم أعر مسألة الزواج هاته أدنى اهتماما، لأنني كنت واثقا أنها سترفض كل من تقدم لطلب يدها؛ مما يعني أنني كنت متأكدا من أنها لن تكون زوجة لأحد، ومن ثم بدأت في ارتكاب الأخطاء ...

فتحت باب المكتب ببطء شديد؛ لم تكن مجرد صدفة هذه المرة، فالرجلان تم إرسالهما ليقومان باعتقالي. لم أتلق أدنى إجابة لأسئلتي المباشرة الصريحة، إلا جملة يتناوبان على إعادتها بنوع من السخرية والانتقام.

- "ستعرف بالتأكيد".

صغت أسئلتي بكل الطرق المتاحة، أعدت نفس الأسئلة الأحادية، حتى كسرت قواعد الاتساق والانسجام والدقة ولم يتم الإجابة عنها لتظل أحادية، عذراء، بلا جواب ولا ردة فعل ولا تصحيح ولا تنقيح.

- من أرسلكم؟
- "ستعرف بالتأكيد".
- ما الجرم الذي ارتكبته؟
- "ستعرف بالتأكيد".

- دعوني فقط أخبر "المدير"...
- لا فائدة من ذلك...
- أريد أن أتصل ب"كورين"...
- كفاك ضعفا أيها الغبي.. (يجيب *أيار وهو يستهزئ.*)
- أريد أن أتصل بمحامي...
- لا جدوى من ذلك.
- أخبروني فقط ماذا فعلت وبما تم اتهامي؟
- "ستعرف بالتأكيد".
- أ لهذا السبب تم إرسالكم؟ لأنكما تكرهاني؟
- ربما...
- أ كنت يوما سيئا معك أيار؟
- لسنا في مقهى حتى تسألني كهذه الأسئلة...
- وأنت؟ ألسنا جيرانا ونعرف بعضنا؟
- كيف؟ أنا لست بحاجة إلى مقهى كي أجيبك. لم نكن جيرانا، فأنت لم تلق على السلام يوما.

فسألت نفسي، "لما لم تلق السلام على جارك أيها المجرم؟".

لقد قاما باعتقالي. لكن، لا أدري ما الجرم الذي ارتكبته. خرجنا تحت أنظار الموظفين، الذين بدت على وجوههم الرغبة في شتمي. لم أجد، لأتصدى لهذا الهجوم الخاطئ، إلا ابتسامة عريضة خلتها ستبرؤني.

انتظرت جادا محاولة أحدهم لانتشالي، لسؤالي، لمواساتي، فلم يتقدم أحد. فضحكت، ثم استمريت في الضحك حتى وصلنا إلى مكتب الاستخبارات، والذي منعت من رؤية الطريق المؤدية إليه، لكي أتعرف عليه مباشرة بعدما سمعت بعض التوجيهات القاضية بمرافقتي إلى الطابق السابع، حيت تنتظرني ثلة من الضباط والمفتشين في الغرفة رقم سبعة وثلاثين.

كنت أتدور جوعا وأحسست بحريتي تسلب مني تدريجيا. لم أتلقى أدنى عبارات المواساة حتى من هؤلاء المنوطين بتحقيق العدالة. ظننت نفسي بطل فلم بوليسي أو بطل سجون ك "ألفريد هندوس". إنه لمن الجنون أن يتم تقديمي للعدالة وأنا في الواقع لست مجرما، بل حتى المجرمون هم ضحية لمجموعة من الظروف

الاجتماعية والاقتصادية القاهرة، ووصفهم بالمجرمين الخارقين للقانون، هو عجز مباشر عن تربيتهم ليس إلا. ربما يجوز اعتقالهم أو سجنهم لسبب واحد يتجلى أساسا في سهولة هذا الفعل، وفي عدم قدرة المؤسسات المسؤولة عن فهم العدد الهائل من الأسباب التي قادتهم إلى التخلي عن إنسانيتهم دون قصد، أو ربما يعتقدون أنه بفعلتهم هذه يسدون خدمة للإنسانية.

كل ما كان يصول ويجول في مخيلتي الثقيلة، هو" لماذا أنا؟" لم أكن مدمن كحول أو مجرما حتى أنتقم من امرأة بسبب جمالها الفاتن، أو متشددا لأسيل دمها باسم معتقد أو إيديولوجية معينة. لم أكن ذو طبع انتقامي حقود، لأصفي حساباتي عن طريق القتل.

إن المبهم وغير المفهوم يتجليان في مدى غباء أو ذكاء شخص ما يعرفني تمام المعرفة ويتقاسم معي خطأ يدعي أنني المسؤول عنه. كيف أنا ومعظم وقتي أقضيه في مكتبي محكم الإغلاق؟ كيف أنا وجل خطاباتي ألقيها في إطار زمكاني محدد الأبعاد أدافع عن المهاجرين، اللاجئين ضحايا سوء تدبير الإنسان.

ما إن وطئت أقدامنا الطابق السابع حتى تخلصت أخيرا من الشرطيان الرئيسيان؛ ليتم تسليمي لشخص آخر أظنه يختصر الآخران. إلا أنه كان أقل صرامة وأكثر وسامة وثقة في النفس. تم تسليمي، تم إلقاء التحية على الطريقة العسكرية، انصرف الشرطيان.

عند وصولنا أمام الغرفة، كان الباب الرئيسي مفتوحا، لم يكن في الغرفة سوى كرسيان، طاولة خشبية سوداء وأربعة رجال اتخذ كل واحد منهما زاوية معينة من الغرفة. انصرف الشرطي دون أدني اعتبار لوجوده، كما لو أنه لم يكن سوى وسيلة وأنا البضاعة. كل الأنظار اتجهت نحوي، تماما على طريقة زملائي في العمل أو ربما أسوء من ذلك بكثير.

تقدم الأول خطوة فقال:

- إذا عرض عليك أحدهم الحرية بضاعة، وكنت فقيرا فاستحالت تجارتكم وعشت مسجونا طوال حياتك... إذا، بالمقابل طلب منك بائع آخر التخلي عن كرامتك مقابل الحرية، ماذا كنت

ستختار؟ أو بطريقة أخرى هل تظن أنك ذو كرامة؟ فتراجع خطوة وقال بصوت خشن، سلطوي: رد.

سكتت طويلا، ليس لأفكر في جواب أعيه أكثر من أنني أعرفه، وإنما لأفكر في هذا الذنب اللاإنساني الوقح الذي قادني إلى هذه الغرفة المظلمة، وكأنني أحرقت" تمثال الحرية". فأجبت بعد ذلك قائلا:

- إنه لمن المحزن أن تصبح الحرية بضاعة يذهب على إثرها أناس إلى السجن وآخرون إلى الجحيم، أما الكرامة فحتى وإن بيعت فإنها لا تباع.

ضحك الرجل، ثم صفق زملاءه بنوعٍ من الفوضى والعشوائية، لأتلقى أول رفض للجدية والثقة. وأنا أعلم أنه لم يفهم أحد قصدي.

تقدم الثاني خطوتين بحذر مبالغ فيه، ليجعلني أحس حينها بنوعٍ من الإجرامية الصريحة. ابتسمت، فقال بتردد:

- ألا تظن أن نهاية الحرب الباردة كان لها تأثير مباشر على بداية حروب أكثر برودة؟ هل كان لسقوط جدار "برلين" إعادة الأمور لنصابها؟ وهل كانت فعلا في نصابها؟ أي نوع من الحروب تفضل بالمناسبة؟ يبدو أنك مسالم أكثر من اللازم.

خلت نفسي في بعد ثالث من الأحلام. ظننت نفسي "ليوناردو ديكا بريو" في محاولته للرجوع إلى الواقع. صمدت كثيرا، صمودا لم أتحمله من قبل، لعلني أستفيق فعلا. فإذا بالرجل الثالث يحدق في تماما كـ "أندر تيكر" قبل بداية مواجهاته العنيفة أمام الخصوم. إلا أنني لم أختر يوما أن أكون خصما لأحد. قال في صمت:

- ربما كان يجدر بك طلب يد العدالة أولا. فهي قد خصصت لهذا النوع من ردود الأفعال التي غالبا ما تنتهي بالندم، عادة، يكون القتل دليلا واضحا على التعرض لظلم شديد أو لخيانة رحيمة. ومن البديهي أن رد الاعتبار عن طريق القتل يجسد الضعف النفسي والاستراتيجي للمجرم. فبالرغم من شجاعته غير المحكومة وتصرعه في اتخاذ القرار ونيته المسبقة في وضع حد لهذا الإحساس

الشرس بالإهانة، فانه يقوم بالفعل الخطأ. لقد أخطأت. وكل ما أريد التعرف عليه شخصيا هو نسبة إحساسك بالندم.

ضحكت بذعر شديد وقلت مخاطبا هذا المجرم بداخلي:

- أيها المجرم الجبان، لم يكن يجدر بك الضحك على ما قاله هذا الضعيف الذي يذكرني بذلك الراهب الذي كان يواسي سجين في "فيكتور هيغو" في *"آخر يوم لمحكوم بالإعدام"* ، كأنه يحاول منع الرياح من إطفاء الشموع ويجهل أنها ستنطفئ بالرغم منه، سواء غطاها أو لم يفعل.

تراجعت في قراري الخطأ في الضحك على خطاب ديني، لم يكن ليكن لولا طابعه الإنساني. لم يكن في الغرفة صحافة أو إعلام، لم يكن أبي أو أمي، ولم يكن أصدقائي "المفترضين" إلا في غنى عما آلت إليه أوضاعي. أما محاولة هذا الرجل لمواساتي عن طريق استدراجي إلى أن أعترف بخطيئة لم أتعرف عليها بعد، فقد أعادت إلى شيئا من الأمل. ربما يجب على إقناعهم بعدم ارتكابي لأدنى جريمة. وربما أكون لهم مساعدا في التوصل إلى الحقيقة. إلى حقيقة أكاد أكون أنا الجزء الأكثر ظلمة منها.

تأخرت كثيرا في الإجابة. وكأنني فهمت قصد الرجل من كلمة ردود الأفعال. إنه كان يحاول أن يرشدني إلى طريقة ما لأستقبل بها وعن طريقها ما يوجه إلى من اتهامات مباشرة وغير مباشرة. لقد ذكرني ب *"زينون"*، ذلك المفكر الإغريقي الذي أسس لمبدأ "عدم التناقض" وفن الجدل". لقد ذكرني بالمنطق الأرسطي والخطابة السفسطائية. لقد ذكرني بحق الرد، وحق إثبات الحقيقة. ذكرني بـ "أثينا" حيث *"الأكورا"* الديموقراطية تمنح المواطنين حق الرفض، الدفاع عن النفس حتى في حضور الأسياد. ذكرني بـ"هيجل" ومبدأ الخلاصة، أو الرأي الثالث.

فاضطررت حينها أن أتبنى أفكارهم وهدفهم، أن أرافقهم في كل التفاصيل المسندة إلي في خطاباتهم الاستهزائية، الاستفزازية، الداعية للرد.

لقد قررت أن أرد، أن أرد على أول خطاب ألقي علي في غفلة مني. كان في الواقع خطاب رجل تبدو عليه الصرامة والالتزام، قرأت على محياه رفضه لهذه المهنة. فبالرغم من محاولة إبداء القوة، يأخذ الضعف مكانا غير مرئي أو بالأحرى لا يراه من هب ودب. إني قد تذكرت حينها مبدأ الاندماج الثقافي، حيث يجدر بـ "الغريب"

محاكاة أهل الغربة في شتى تمثلاتهم الثقافية، الروحانية، السلوكية واللغوية، أو احترامها إلى درجة الخضوع لها.

فاستدرت لأرد قائلا:

- لقد ولد الناس أحرارا أيها السيد، وإن أدنى محاولات الحد من هذه الحرية خصوصا بالطرق غير المشروعة، هو أمر يحتاج في حد ذاته إلى الخضوع للسؤال. أليس كذلك؟

- فعلا. ربما لن تضع حدا لحريتي إذا ما قمت بالاعتداء على أمك بداعي هذه الحرية؟

- ربما قد تعبر عن انحطاط أفكارك إذا ما اتخذت من أقرب الناس إلي وسيلة لإخضاعي. وإنه لمن البديهي إنني سأقتلك تماما كما يقتل الأسد فريسته، أو أبشع من ذلك بكثير. إنه لا فائدة من العدالة عندما يتعلق الأمر بالأم.

في الواقع، عندما وظفت كلمة *"القتل"* في آخر رد على الرجل، لم أكن قد رتبت لذلك، بل كنت في غاية الطلاقة، إلا أنني أخطأت.

لفتت انتباهه إلى كلمة تكاد أن تكون هي الهدف الرئيسي والغاية القصوى من هذا الحديث المخادع.

ترك كل واحد منهم زاويته ليلتحق باجتماع طارئ. ذكرني هذا المشهد بالفن النبيل. كنت أنا الطرف المهزوم في اللقاء. لم يأت طبيب أو محفز إلى جانبي. كل ما كان هو طاولة خشبية سوداء، نصف سيجارة وقنينة ماء مجردة من الملصق والغطاء. يبدو إنني فهمت سبب اجتماعهم. أظنها كلمة " قتل "، إن توظيفي المباشر لهذه الكلمة وبطريقة شرسة، ربما كان له تأثير واضح على انهزامي في الشوط الأول من المقابلة.

ولهذا سيقول أحدهم أن إحدى نظريات "علم الإجرام" لفلان، تؤكد كون توظيف كلمات ذات صلة بموضوع الجريمة هو سبب مقنع لكون الماثل أمام العدالة جزء من الجريمة أو مساعدا عليها أو سبق له أن مارسها أو كانت له النية وله النية في ممارستها.

تكلم الرابع أخيرا قائلا:

- إنك متهم باغتيال رئيسة الوزراء. وقد خططت منذ أحداث الحادي عشر من أيلول عام 2001.

كل محاولاتهم لاستدراجي باءت بالفشل. لم أكن يوما مجرما ولم أتعاط أدنى أنواع الإجرام، حتى وظيفتي لم تجردني من شخصيتي ومن حبي للعدالة والنظام. أينما وجد الظلم واللاعدالة تجدني مدافعا عن المظلوم ومؤازرا للعدالة، حتى وإن كان من أعارض أكثر مني قوة وجبروتا. إنه للأسف، أصبحت السياسة ذات بعد رهيب، مرتبط جذريا بالخوف والمجازفة. أما العكس فيجعل منها ميدانا للأقوياء للدفاع عن الضعفاء، عن العدالة، عن القانون.

إلا أننا أصبحنا نعيش الألم بسبب السياسة، أصبحنا مجرد فئران تجارب لسياسيين لا يهمهم سوى المجد، الرقي، العيش الكريم، بل الفاحش. أصبح الحق في النوم مهددا بل مسلوبا دون علم الحكام. *أصبح الطالب مكتئبا، مهزوما دون علم الأستاذ والمعلم*. كل المعلمين اليوم يريدون أن يصبحون رسلا دون جدوى. الكل يعاني، الكل يهدد بالانتقام، الكل يفكر في الهروب، في الهجرة، في الموت. لم يعد شبابنا يحيون روح المواطنة والإحسان، لم يعد هناك أصدقاء، كل ينادي باسمه باسم الإنصاف والحب في سترة، في خفاء، في الظلام فقط.

تم تسليمي من جديد إلى رجل آخر. لم يكن من رجال شرطة بالرغم من أن زيه يشبه إلى حد كبير زيهم. استقبلني بابتسامة عريضة، لم أعهدها على وجوه الرجال الآخرين. فك أصفادي بلطف وأدخلني غرفة مظلمة، حيث رائحة الجيفة تضفي على المكان نوعا خطيرا من الغربة. إيقاعات سيمفونية تترأسها الصراصير. صوت حشرة مدفونة في الركام. جدار أسود... ذكرني هذا المشهد بـ "الزنزانة رقم عشرة". كنت حينها عديم الجدوى، دون فائدة، مجرد إنسان تم تجريده من إنسانيته. ظننت أن هذه العملية، لم تكن سوى مشهدا من مشاهد فلم رعب سويدي، سيكلف مخرجه ملايين الدولارات. فصممت لعلني أكسب بعض الشهرة، والقليل من المال، ربما أسافر به إلى" جزر *المالديف*" أو إلى"*أمستردام*" لطالما فكرت في ذلك.

في الواقع تأخرت نهاية المشهد كثيرا، لأكتشف أنني لست بطلا أو ممثلا بل كنت سجينا في سجن انفرادي، معزول عن المدينة وصخبها وضجيجها وسكانها، فسكان هذا السجن ليست لهم مدن تأويهم ... كنت لأفضل العزلة لو كان المكان مناسبا، أي أنه لو خيروني ثم فرضوا على العزلة والانفراد مدى الحياة سأكون قليل

السعادة، لكنني سأتحمل عواقب قراراتي، ولن ألومهم على الأقل على دغمائيتهم الزمكانية.

لكنني، شئت أم أبيت، خاضع منذ الآن إلى العقاب. حتى في طريقة السجن يبحثون عن طرق للعقاب، للتعذيب في غرفة لا مجال فيها للمصابيح أو الملصقات، تذكرت بعدها مسلسل *"ساو"* فأحسست بالخوف والذعر الشديدين، لم أكن أعرف إن كانت هذه الوضعية حقيقة أو اختبارا.

الفصل الثاني: الزنزانة

في اليوم الأول عجزت عن النوم؛ بل لم أفكر فيه حتى. قضيت الليلة في تخليص الزنزانة من الصراصير المنتحرة وجيف الفئران الجائعة والمريضة، كي أجد لي مكانا أناجي فيه هذا المجرم بداخلي. كانت غرفة غريبة الهندسة، مثيرة للدهشة، للرعب، للموت. لم تكن ذات أربع واجهات، فواجهاتها تتغير تلقائيا كلما فكرت في التحقق من عددها. ربما كانت تظهر خمس واجهات في النهار وعشر واجهات بالليل.

ناديت بعدها ذلك الصامت الأصم، دون جدوى. ظننت أنه قد يساعدني في التخلص من هذه الثلة من النفايات القذرة. لم يكترث أحد لندائي، تملكني إحساس مقرف بالانحطاط، بالسوء، باللامبالاة عديمة الطعم التي أعيش في نطاقها. لم أعتد هذا

الصمت المبالغ فيه، آخر صوت سمعته هو موسيقى الصراصير وصوت الباب الفولاذي الغليظ الذي فتح ليغلق نهائيا. كأنه أغلق إلى الأبد. زمن يدري حتى الآن؟

جاء الصباح، لم أتذكر في الواقع ما إذا كنت قد نمت، لكن صوتا ما أيقظني، لقد كان فحيح أفعى. كنت أهاب الأفاعي والعقارب أكثر من أي شيء على الإطلاق. لحسن حظي، أن الأفعى لم تكن سوى في طريقها إلى غرفة أخرى، فكانت غرفتي فقط محطة عبور. حتى الأفاعي أبت المكوث معي، أو ربما هجرت هذا المكان منذ الأزل. يا للحظ البائس!

استحييت من الكلام، من المناجاة، بينما لم أكن سوى في إطار مقدمة طلليه، في بوادر الأزمة الحقيقية. استنفذت كل وضعيات الجلوس، حتى إنني أصبحت أمارس "اليوغا" دون قواعد يابانية أو صينية. لم أعد أفكر في حاجاتي البيولوجية وإنه لأمر بديهي، لاسيما وأنني لم أتناول ولو حبة شعير أو قمح ذابل، حتى خبز "شكري" الحافي لم يطأ حنجرتي منذ وقت طويل. مكثت طويلا فإذا بصوت الباب الفولاذي يكلمني، تأكدت بأنني لم أفقد سمعي،

أما بصري فلا يزال يواسيني بالصور والكوابيس الخادعة. ربما لم تكن خادعة، لكنني لم أتجرأ يوما أن أعارض رائد الشك المنهجي.

أحسست بضعف شديد حين فتح باب الغرفة. لقد كان الحارس كالعادة، يحمل حذاءه العسكري ببطء مبالغ فيه، كما لو أنه يساهم بدوره في تعذيبي. يتدحرج كأرجوحة، يتلاعب بها الريح ثم الرياح. ليفتح نافذة دائرية، ضيقة، هزيلة يتساقط من على حاشيتها الصدأ وبقايا الشبكات العنكبوتية التي باءت بالفشل. أطل على بوجهه المستدير الذي يتماشى وأبعاد الدائرة، دون إبدائه لأدنى مشاعر المواساة أو الشفقة: لم أكن في الواقع في حاجة إلى شفقته أو إناءه البلاستيكي المتسخ ذو القليل من الحريرة البيضاء، بقدر ما كنت بحاجة إلى القليل من ذرات الأكسجين.

توالت الأيام على نفس الحال. في الغذاء، يزورني الحارس وطبقه. في الصباح وقبل الفجر وبعد الصباح أخطط للهروب. بعد الغذاء، أغير خططي لأخلد للصمت. لا أحرك ساكنا حتى حلول العشاء. يزورني وجه الحارس وطبقه المعتاد، فينتشلني من عالم" الهستيريا" والضجيج والبرد القارص ودوامات الغثيان، فأعود إلى

الصفر. أتناول العشاء وكأنه غذاء أمس، بارد، تروج على حاشيته غيمة من الصوف وسواد في الأطراف يشعرني بالقرف ويسبب لي رغبة في القيء. ولا جدوى من الصراخ، حتى صراخ أطفال" فلسطين" الأبية لم يسمع وكيف لصراخي هذا الخافت أن يسمع؟

أسر كلما تذكرت أن في إحدى زوايا السجن بشر. وأتنفس الصعداء كلما سمعت هزات الأقدام تتقدم، وأندم حين أسمعها تتراجع في صمت تتباعد أصداؤها بخجل.

الفصل الثالث: زيارة كورين

شاء القدر أن يزورني أحدهم في السادس من حزيران. كان الجو حارا آنذاك، وازدادت حرارته بالموازاة مع هجوم، نفذته جمهورية ذكريات مشاغبة: رائحة البحر، أصوات الأمواج، غروب الشمس على الشاطئ، السفر... امتلكني شوق وحنين رهيبان للسفر. كان يجدر بي أن أكون في "أمستردام" حيث رتبت لذلك منذ الأول من كانون الثاني، رتبت لذلك بمعية "كورين"، ذلك الشبح الذي لطالما جعلني أسهر الليالي وأحزن لغيابها المنصف، فجاءت لتزورني.

لولا حاجتي إلى تبادل أطراف الحديث مع شخص ما، لما قابلتها. اقتربت مني والدموع تملأ مقلتيها الشفافتين وقالت في صمت وهي تخاطبني:

- أعذر تأخري هذا المفرط، لم أتمكن من التعرف على السجن. وقد اضطررت لمقابلة الرئيس لـ...

قاطعتها مرتبكا وقلت لها أنه لا يجدر بها التصرف بهذا النوع من البراءة أو الندم. لا شيء يدعو إلى الندم. وطلبت منها أن تكلمني في موضوع آخر أو تصمت. فالوقت الذي منح لي، قليل بكثير وغير قابل للضياع، خصوصا في هذا الجو الصيفي الحار. أضافت معلقة:

- لقد اعتدت فراقك، كل ما في الأمر هو أنني أردت أن أراك بحكم أنني أعرفك ليس إلا. أما الندم والبراءة فقد تخليت عنهم.

اضطررت، في فزع مما تلقيت من عبارات جافة، إلى أن ألتحق بزنزانتي. لم أعد قادرا على استيعاب أن أقرب الناس إلي، مسخوا، أصبحوا أكثر صرامة وأقل قابلية للتعاطف أو الشفقة.. لا أريد أن أصير مجنونا، لا أريد أن أعامل بوحشية في مراكز الإدماج ومحاربة المخدرات. لا أريد أن أصير مريضا يعالجني أطباء لم يتجاوزوا " الباكالوريا" سوى عن طريق الغش أو في الدورات الاستدراكية. لا أريد أن أزار، أن أصبح موضوع اهتمام الكل أو لا

أحد. لا أريد شيئا. بلى...أريد الحرية ومن لا يريدها؟ حتى المرضى والمجانين يريدون الحرية. يريدون التجرد من الأضواء، من الظلام والظلمة: ظلمة السجون والمستشفيات المهجورة.

عدت وتركتها، ووعدتها أن أتركها، أن أعيش من دونها، أقنعت نفسي بأنني في غنى عنها، عن وجودها، عن اسمها، عن أفعالها الصبيانية، الطفولية، عن كلماتها المتقطعة، البلاغية، المتشردة.

عدت إلى زنزانتي الحبيبة. إنها في حداد. أصابت. لقد أصابت حين أخطأت "كورين": هذه الكتلة من اللحم البشري، هذا الفراغ الروحاني، وهذا الجسم العقم، الشاحب، الذي لم يعرن أدنى اهتماما وكأنني لم ألق السلام. وأنا مسالم كالفزاعة لا تجيد الكلام ولكن تخشى الطيور أن تتقدم في وجودها إلى الأمام.

عدت أنتظر ببطء عودة الثعبان أو الأفعى المهاجرة، لعلها تصيبني بقليل من الخوف أو الذعر، لعلها تسيطر ولو لثواني على هذه الفوضى المتناقضة التي تغزو دماغي. أو ربما تخلصني من هذا المنفى بقليل من السم المركز. سأشكرها. سأنطق بالشهادتين وأموت. أو ربما قد تؤازرني، ترشدني إلى حل لمصيبتي هاته.

كيف لهذا الكائن الضعيف، الذي لا سلاح له إلا بضع ملليغرامات من السم، أن يعيش حرا؟ بينما أنا الذي أكثره قوة أموت ببطء. لم أكد أنهي مناجاتي حتى أطل علي الحارس بوجه المعهود، لا أعلم إن تعذر على سماع موسيقى الباب الحديدي المثيرة للاشمئزاز. وضع كالعادة الإناء البلاستيكي نفسه على حافة الباب. لم يكن يعلم أنه قد جاءني في وقت غير مناسب، حتى تداركت وتذكرت أن كل تحركاته في هذا السجن لا تهدف إلا لأن تعاقبني. رفضت الوجبة... في الواقع هزمت في آخر اللحظات حين تذكرت قولهم:

"لي مرضى بخبزة يرضى بنصها."

إنه لم يكن هناك أدنى تبرير لإبداء الكبرياء في هذا المكان المهجور. اللهم التواضع أو الموت. لقد فضلت التخلي عن كبريائي مقابل الحياة. أي حياة هاته اخترتها أيها السجين الضعيف المقهور؟ ألا زلت تتشبث بالنجاة؟ من أي سلالة أنت؟ من أي قوم؟ من أي قبيلة؟ من أي عرق أنت؟ ... أ يليق بالإنسان أن يسجن؟ أن يستضعف؟ بلى، إنها مسألة عدالة ليس إلا. ليس أمل النجاة فالعدالة نجاة إذا ما فازت في العراك. إني في عراك مع اللاعدالة.

تناولت طبقي الياباني الطبيعي، شربت ماءا عذبا ثم استلقيت على سرير حريري سميك. نمت لساعات طوال، حتى تخلصت من تعب الساعات الجحيمية التي قضيت مذ مجيئي إلى هنا. فتحت عيناي ببطء شديد لأجد أمامي رجلان بزيهما الأبيض وعلامة الدهشة قد رسمت على محياهم.

إنني في المستشفى، لقد أصبت بتسمم.

نقلت مباشرة بعد ذلك إلى الزنزانة. لم أقض بعد فترة النقاهة. سأعود إلى الجحيم، لن يعاقب الحارس، الطباخ، أو رئيس السجن. فأخذت نفسا عميقا لأناجي نفسي في صمت:

- إذهبي أيتها الغريبة، أنت حرة. أنا في غنى عنك. أنا عديم الفائدة. أنا لست إلا جمادا. اذهبي في سلام وسلام على ذلك الفتى البريء.

حل الصباح باكرا وحلت معه رائحة العشب الذي بلله القطر. لقد اشتقت للحرية. اشتقت للخروج بعد منتصف الليل لأتسكع بين زقاق "المدينة القديمة" بأضوائها الكئيبة المتعاطفة. إنها أفضل من "كورين". اشتقت لفنجان القهوة الصباحية، لجرائدي

الفرنسية وكتب السياسة وسير عظماء القياد وإمبراطورات العالم. اشتقت للنقاشات الفلسفية حيث الخطابة وفن الحديث يغذيان شغفي.

لقد مر عام على سجني اليوم، لا أعرف تماما كم مرت من سنة. لا أعرف حقا. أنا تائه. أنا مسافر عبر الزمن. أنا غريب عن الأرض. أنا لست في الأرض. لم يمر عام فقط. ربما خمسة أعوام، ربما أكثر من يدري! لست أنا. أنا لا أدرك شيئا. أنا مهزوم. أظن أنه مر وقت طويل على دخولي هذه الزنزانة. بينما لم أمثل أمام العدالة بعد، لم يتم محاكمتي، أي عدالة هذه؟ إني أستنجد بالصمت. وإنه لا يمكن أن ينتشلني وهو لم يستطع أن يزيغ عن هذا الهدوء الرهيب.

الفصل الرابع: العزلة

"كورين"، هذا الاسم المتعالي هذه الروح الفارغة المنعزلة، هذا الإعجاز العلمي الذي كذب الحقيقة وسافر بالعقول نحو دور مهجورة، لا يسمع فيها سوى صدى أصوات الأشباح والكائنات اللا مرئية، هذه العقدة المتماسكة تماسك الظلام في ليالي الشتاء، هذا السبب الداعي للبكاء، للهروب، للنزول، للتأمل في الشر البشري: لقد خذلتني، جردتني من هويتي وهي لا تعرف أنه لا هوية لي سواها ولا بابا أطرقه لأستضاف، تعرف أنني لن أطرق الأبواب أصلا، وأن لي بابا أدخله كيف ومتى شئت، دون عتاب مللته ودون صراخ أو هراء أو شفقة. إنه لا فائدة من الشفقة وليدة الاحتقار والتعالي.

كلمتني في صمت حين كنت في حاجة إلى همسات تنسيني ضجر الأصوات والصداع الذي تسببه بعض النبرات الغريبة، غير

المنتظمة، غير المنسجمة، المتآكلة، الحادة، عديمة المعنى. فظننتها عاشقة للهدوء، متعالية عن القاع، غير أنها خذلتني وسافرت حيث البحث عن هدوئها كان الأهم ولم يكن لقاؤنا الاعتباطي، بالعشوائي وليد التزامنية والصدفة جديرا بالاهتمام. خائنة أنت وبلا لا شيء! فانفعلي إذن!

انفعلي فذلك لا يزيدني إلا حبا في روحك المتكبرة، المتعالية. انفعلي فذلك لا يزيدني سوى جنونا، سوى رغبة عمياء في معانقتك، في تقبيل جبينك الدافئ، في مداعبة خدودك الوردية الملطخة بالدموع. ابك فبكاؤك لا يصيبني بالحزن قدر ما يصيبني بالحب. ابك فذلك يعذبني وينتقم من كبريائي العذراء المملة! انفعلي تارة كي أهيج بسببك كالبحر ،كمياه المحيط العاتية .انفعلي فذلك لا يزيدني إلا قوة وجبروتا ، يحطمني و يحطم كل من أثار غضبك .انفعلي ،لكن أنظري يبطئ إلي ،فأنا هنا أتابعك ،أتجول بين رفوف مكتبتك الرمادية ،حيث الغبار والصمت والحنين ومذاق القهوة يزيدونك القليل الكاريزما والكثير من الجمال الأنوثة .انسحبي منها كل ما ضاقت بك ،فكتبها ليست إلا روايات الحياة الكئيبة ،روايات أشخاص ليسوا مثلك تماما ،أو ربما روايات أناس خائنين كتبوا كي

يدونون ندمهم، كي يتركون بعض الدموع بين هوامش الصفحات، بالرغم من أن ذلك لن يفيد في شيء سوى الندم.

سأجد لي خميلة أو خليلة، سأسافر قبل أن أجمع المال. سأسافر لأنني تأخرت عن موعد الرحلة. أي رحلة هاته؟ بل الرحلات. كل مواعيدي باءت بالفشل، حتى موعدي مع العدالة لم يتسن له الوفاء.

سأركب قطارا أو مركبا وأسافر، فأنا جد متأخر. إني في القاع، في الصفر. لن أنتظر عودتك فأنا متأخر! سأبحث، مسافرا نحو المجهول، عن دليل أو وثيقة لي. سأبحث عني في كل مكان، وفي العدم ووراء المكتبات وخلفها وفي سيرتك العبثية القاتلة.

سأدور عن نفسي، فقد اكتشفت متأخرا أنني متأخر وبلا عنوان، اكتشفت أن الناس الأوفياء يموتمون قبل الأوان، والناس لبعضهم ذكريات فقط، صور، حكايات، نبرات أصوات، تناهيد، تقاسيم وجه، عيون نجلاء، سوداء، عذراء، لا معنى وكل المعاني فيها. اكتشفت غبائي الغبي وسذاجتي اللا معقولة. فكيف يجدر بي أن أنتظرك؟ لكن سأنتظرك حبا في قصيدة" درويش" القائلة:

بكوب الشراب المرصع باللازورد.... انتظرها.
على بركة الماء حول المساء وعطر الكولونيا.... انتظرها.
بصبر الحصان المعدّ لمنحدرات الجبال.... انتظرها.
بذوق الأمير البديع الرفيع..... انتظرها.
بسبع وسائد محشوة بالسحاب الخفيف..... انتظرها.
بنار البخور النسائي ملئ المكان.... انتظرها.
برائحة الصندل الذكرية حول ظهور الخيول..... انتظرها.
ولا تتعجل، فإن أقبلت بعد موعدها فانتظرها.
وان أقبلت قبل موعدها فانتظرها.
ولا تُجفِل الطير فوق جدائلها وانتظرها.
لتجلس مرتاحة كالحديقة في أوج زينتها.... وانتظرها.
لكي تتنفس هذا الهواء الغريب على قلبها.... وانتظرها.
لترفع عن ساقها ثوبها غيمة غيمة..... وانتظرها.
وخذها إلى شرفة لترى قمرا غارقا في الحليب وانتظرها.
وقدم لها الماء قبل النبيذ ولا تتطلع إلى وأمي حجل نائمين على صدرها وانتظرها.
ومُس على مهل يدها عندما تضع الكأس فوق الرخام كأنك تحمل عنها الندى وانتظرها.
تحدث إليها كما يتحدث نايٌ إلى وترٍ خائف في الكمان، كأنكما

شاهدان على ما يُعِد غد لكما وانتظرها.
إلى أن يقول لك الليل، لم يبقى غيركما في الوجود، فخذها إلى موتك المشتهى وانتظرها.

لا، لن أعيد تمثيل جريمة "فلاديمير" وستراغون"، ملك الانتظار والسخرية والعبث. لن أنتظر أحدا فإنه لم ينتظرني أحد. دخلت السجن وحيدا، عانيت وحيدا بل وبمعية الحارس الذي كانت تبدو عليه علامات الوحدة جليا، ويغمر تقاسيم وجهه حزن تكاد لا تسببه سوى الوحدة والعزلة.

ابن الأرض أنا والأرض أمي. لست بعاق أو عديم الرحمة، إنما ماتت أمي ولم أسقى إلا قليلا من حليبها. ماتت وتركتني يتيما، غريبا، لا ميراث لي سوى عجوز أتعبتني بحكاياتها الشعبية، الخرافية، أحببت جدتي وأي سبيل أملكه غير هذا التعلق "الميكانيكي"، "الأتوماتيكي" بها.

أنا عقلاني ولي عقل منزه عن الذل والمذلة، عن الفوضى المعهودة في المقاهي والحدائق العمومية، عن ضجيج الشوارع ومحطات القطار. كيف يجدر بي أن أنتظرك وأنت سبب كل هذه الفوضى،

فلولا خطيئتك لشربت قهوتي الصباحية الدافئة صباح الشتاء وأنت في انتظاري وكأنني عائد من الحرب.

لست من الحرب عائد. أنا لست بعائد، أنا لم أعد. أنا لازلت مسافرا عبر الزمن؛ فالعائدون يبتهجون ويبتسمون للحياة، يضحكون، يهرجون، يتجهون إلى أماكن العبادة، يمارسون "اليوغا"، يقومون الليل، يصلون ويتعبدون. أما أنا لست بعائد. لست كـ "ديكا بريو" العائد إلى الواقع خجولا، عاشقا في أطفاله وبيته. إلا أنني بلا أطفال وبلا جمال أفتن به النساء، بلا تذكرة أنا.

ربما أكون أنا المذنب والمخطئ والمتعجرف والضال عن سبيل الله. قد أكون أنا المجنون والمنفصم عن شخصيتي والمكذب للواقع والراكض وراء الوهم والخيال. قد أكون كذلك من يدري؟

سأعود غدا. إنه ليس أفضل من غد شيء: مبهم، مغطى، مغلق كالهدية، كرسالة مجهولة، كنسيم الصباح أو المساء أو رائحة البحر والحدائق. غدا في الفجر، على حافة الوادي، هناك حيث تتلذذ الزهور بطعم مياه النهر البارد، وتعبث الضفادع مع حشرات ملونة كلوحات "بيكاسو". ستجدينني لك منتظرا مستعدا للسفر.

سنسافر إلى "أمستردام"، على الطريق السيار، على متن "الكونكورد"، في الحلم، فأنا متأخر. سأسافر إلى روما لأشتري لنا بعض "البيتزا" الطازجة وأعود لأتابعك وأنت تستمتعين بأكلتك المفضلة على ضفاف قناة "أمستردام". أما في الليل على إيقاع موسيقى *"رود ستيوورت"* الحزينة، سأغني لك "*عندما أحتاجك*"، سأقدم لك الورود تارة والنبيذ تارة أخرى، حتى تغرقي بين "الأزقة الحمراء" ونغمات قيثارات البوهيميين المتجولين، العاشقين في الليل والسهر ونظراتي المليئة باللوم والعتاب.

سألومك حين تتحولين إلى أميرة تعشق المديح والغناء والجمال والرفاهية والحب. سألومك حتى تبكي، سأبكي معك على نفسي وليس من الدموع ما سيذرف بسببك. عديم الرحمة أنا إن شئت.

لذا فأنا لست بالعائد. لست حائرا كـ" *درويش*" ولست كذلك لسببين. أولهما قضيتي، فقضيتي وطن وحرب ودماء وعدالة وترهيب وخوف وجدل وسكون وصمت. وثانيهما كسل وملل ولا مبالاة بطعم الخروب المبلل بمياه البئر وفقدان أمل يأمل أن يصير أملا وحاشية سئمت ملاحظات ورموز الكتاب والفلاسفة، وبحر هائج لا يقوى القمر عن مجاراة غضبه السريع العتيد.

لن أعود إلى وطنك الناكر للجميل، إلى أرضك المجردة من الحنين، إلى سجنك الأبدي. لقد تهت ومتاهتي سرمدية غير معهودة. أمام الأطلال سأقف لأبكي، فقط حبا في مقدمة "امرؤ القيس" القائلة:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل.

أما أنا، فلا منزل لي ولا وأملك من الحبيب سوى ذكرى حزينة مدمرة. سأبكي صمتا لأتناسى أيام الشتاء والخريف والصيف والربيع الذين لم أعر مجيئهم ورحيلهم أدنا اهتماما.

سأبكي لأنه لن يسامحني الربيع وكم هي متكبرة كبرياؤه. لن يسامحني الخريف وكم هي بليغة جروحه ووحدته. لن يسامحني الشتاء الكريم، الهادئ، الثائر أحيانا والمتواضع أحيانا أخرى. كيف أسامحك وفاقد الشيء لا يعطيه؟ لن أتعقب أثارك المختفية تحت الثلوج، نظراتك المتطايرة كأوراق الخريف، شبحك الذي يراودني كالسراب، اسمك الملطخ بالدماء، صورك البيضاء، السوداء، رهينة الورق والأوراق. لن أتعقب آثارك فأنت كالصاعقة

تترك الآثار وتختفي، كأمواج البحر تخطف الأطفال وأي موج نلوم؟

أنت يا سيدتي سيدة كثيرة الظن فخاب ظنك، قليلة الصبر فخانك صبرك، عديمة المشاعر، عاشقة للحرية، للتحرر، للسفر. أنت قمر لم يسبق له أن ترعرع بين أحضان البدر والهلال، صغير حمامة أنت، بلا وعي، بلا عطر، بلا قلادة، بلا بوصلة.

انعدمي في، فأنا بلا عنوان، تائه، غريب، لا أملك سوى ماضي حزين وبعض الكاريزما، وليدة الحزن. انعدمي في فأنا بلا عنوان، املأيني، غطيني، احرصي علي، فأنا مسحور، مريض، غيور. لا تعاتبيني على الصمت أو الصراخ، فأنا سريع الانفعال، كثير الفلسفة، كثير الإحباط. انعدمي في، فأنا فراغ فارغ، أبحث عن امرأة خذلتني، وعن أخرى سأمتني. غني لي، سافري بي عبر الزمن، حدثيني عنك من حين لآخر، فأنا غريب عن نفسي، أحتاج كلمات أخريات لا يشبهن خطاباتي الوجودية، العبثية. عودي بي إلى الوراء كي أنتقم وخديني إلى غرفتك، إلى وطنك، إليك، لاجئا كنت أو سجينا، زائرا أو عابر سبيل، فأنت وطني.

أعدك أن أنساك، أن أتناساك إذا عجزت عن نسيانك. أعدك أن أتغاضى عنك، أن أكمل أو أبدأ أو أنهي مشواري دونك! فاذهبي في سلام، ونامي وكلي وغني وارقصي كما شئت، فأنت حرة، طليقة. سأنساك.

- ما كل هذا الضعف أيها السجين؟ ما كل هذا التواطؤ، هذه المهزلة، هذا العبء الذي يثقل كاهلك؟ ما بك تتباكى كالنساء؟ فالنساء نفسهن لن يتأثرن بالطريقة التي أرى. النساء أكثر قوة منك إذن؟

- ما بك تعاتبني؟ ومن أنت لتكلمني؟ من أنت لتتدخل وتأخذ القرارات؟

- أنا؟ أنا الخير وأنا السلام المنتهك. وأنت؟

- أنا السماء الأرملة. أنا قمر ذلك الكوكب الذي لم يكتشفه البشر بعد. أنا الثقب الأسود، مجرة أنا في كون بعيد.

- أنت الشر!

- أنا الشر إذا، كما تشاء...

- إنه لا وجود للشر على مجرتنا، فأنت لست سوى دخيل عن عالمنا. دخيل، متطفل، عديم الأخلاق، عديم الهوية، أنت وهم، فانسحب من عالمنا إذا فعلا كنت منزها عن الذل والمذلة. انسحب وتعالى كما شئت. انسحب فقد أتعبت الوجود. أقسم لك أنك أتعبت الوجود، وجودي أنا ليس موجودا، بل لم يعد موجودا بسببك. انسحب فقط دون إضافات، إضاءات، لغو أو لهو الصغار. إني كبرت ... ألم تلاحظ ذلك؟ لقد كبرت ولا زلت تلاحقني هكذا بلا سبب، بلا ... لا أدري! ألم يصبك الخجل؟ ما كل هذه الفوضى، الإفراط، التهاون، الحقد، التجاهل، الشطط؟ ما كل هذه البكائية، الندم، التمزق، التشتت، الدمار الشامل، الحريق الذي أنشبته وجلست مرتاح البال تتفرج وكأنك *" جيمس فان"* .

- إني لجيء ولاجئ ليس لي في عالمنا حب، ليس فيه محبة وأنتم كثيرو الحب. لم أجد في عالمي أنثى أجمل من "كورين"، ولم أجد مخلصا في عالمي كـ "أنت". لجيء ولاجئ ودخيل أنا، أنت على صواب، سأنسحب حتما، سأترك عالمكم الجميل وأرحل، هذا ما يجنيه الدخيل، سأنسحب حبا في مثل جدتك القائل:

"المغطى بديال الناس عريان."

إني عار، بلا غطاء، بلا وطن هوية أنا.

الفصل الخامس: الرسالة المجهولة

مرت سنة كاملة على سجني. في الواقع، لم أكن لأعرف ذلك لولا تعاطف الحارس. كان ذلك لطفا منه، عندما فتح الباب على نفس الحال وبالطريقة البشعة، التي ما فتئ أن كرهتها كرها شديدا، لم يكن وقت الغذاء أو العشاء، حيث أنهما المناسبتان المعهودتان اللتان أتمالك فيهما أعصابي. ظننت أنني سأخرج من السجن، ربما بفضل تبرئتي من لدن شخص ما لا أعرفه، خلت أنني سأخرج في جولة إلى المدينة لأتسكع وأنا حر في شوارعها. كل ما ظننته كان زعما فحسب: إذ نسيت أن بعض الظن إثم.

مرت سنة كاملة لأن الرسالة التي تلقيت ذلك الصباح المشؤوم، كانت تحمل تاريخ السادس والعشرين من "كانون الأول" وهو تماما تاريخ اعتقالي. لقد كانت رسالة طويلة لا مجال للفراغ أو الحاشية

فيها، رسالة مسترسلة، أظن أن كاتبها سريع الغضب والانفعال، كثير الكلام، قليل الحلم تماما كالنساء؛ إلا أن مرسلها لم يكن امرأة، فالنساء كثيرات الصبر كثيرات الاكتراث. كتب:

أتمنى ألا تكون على ما يرام. أتمنى أن تكون قد فهمت السبب وراء سجنك. وأنا مرتاح البال وأنت تعاني. لكن لا تخف من السجن، فهو في آخر المطاف خير من الموت. ستخرجه وستقابل الحياة من جديد. ستستقبلك بكرم وتجود عليك بالهواء العليل واللحم الطري وماء يسقيك مدى الحياة. ستحيي وستتذكر أن السجن عدو هزيل، أما الموت فهو عدو عنيد لا يقهر.

إن الحزن قابل للتحمل. الحزن للبشر رفيق لا يفارق كل ذي روح. أعرف بأنك بريء، لكنني سأركز على اتهامك مادام أنك لا تقوى على الدفاع عن نفسك. أعرف أنك بريء ولكن لست الوحيد... وإن عاتبت أحدا أو شيئا، فقدرك هو الجدير بالعتاب..

أما أنا، فلن أستطع البوح لك بالبقية حتى يوم مماتي، حيث سيصبح بإمكانك معرفة المزيد، أو ربما بعد، أو قبل، فالوقت قد

قطعني سيفه قبل الأوان. لا معالم لي ولا آلة زمن ولا تعاقب ليل أو نهار أو فصول. كل الفصول أرجائي وكل الأرجاء فصولي.

الغريب.

أمضيت يوما كاملا في قراءة هذه العبارات الغامضة والتي لا تسبب لقارئها سوى الغضب. من يا ترى سيراسلني بهذه الطريقة؟ إني متأكد من عدم إلحاق الأذى بأحد، كنت متأكدا أنها ليست "كورين"، بالرغم من أنها كانت تتبنى بعض الأفكار العدمية، وكانت كلما ضاقت بها الأرض تفكر في الانتحار. لكنني لا أظنها هي، فالنساء هن أكثر الكائنات خوفا من الموت. وإنه لمن البديهي أنها لم تكن لتنتحر بسببي، لذلك فكون هذه الرسالة من طرف "كورين" هو أمر مستبعد كليا.

كل ما بدأت التفكير به هو وقت حلول الشتاء القادم، لعلي أفك لغز هذه الرسالة. كنت منغمسا في المناجاة، لأتفاجأ بالباب الفولاذي يفتح: إنه الحارس كالعادة. في الواقع، توقفت عن مناداته بالحارس، لقد كان سجينا هو الآخر. إنه لا يفارقني،

يطعمني ويرافقني منذ سنة ولم يتم ترقيته، لم يأخذ قسطا من الراحة ليذهب في إجازة إلى "أنغولا" أو "الزمبابوي"، وكأن عقده لا يحوي عطلا، ذكرني "بسيزيف" ذلك الإنسان المحكوم بالموت البطيء.

توقفت عن سبه وشتمه، وعن اتهامه بالمشاركة في تعذيبي، وشكرته قائلا: "شكرا" بعد أن أحضر لي الطبق المعتاد: القليل من الحريرة وكسرة خبز يابس، شكرته بجدية مبالغ فيها واعترفت له بالجميل؛ ماذا لو كان هذا الحارس خائنا للأمانة، كثير الحقد أو مريضا نفسيا: كنت سأموت جوعا، كنت سأكره العالم حتما.

ذات صباح طلبت منه أن يحضر لي بعض الجرائد. كانت تلك أول مرة سأكلمه وكانت تلك أول مرة سيكلمني؛ قال في تردد:

- إن الكتب والجرائد ممنوعة داخل السجن، وإن أحضرتها سيتم فصلي عن العمل أو سيتم سجني. أعتذر...

لم أكن أظن أن حارس سجن انفرادي، لا معالم له ولا أبعاد سيجيبني بهذه اللغة السليمة المقنعة. أحسست بفرح شديد آنذاك وأمضيت أسبوعا كاملا أتدبر في ماهية هذا الشخص الذي

لا أراه سوى عن طريق نافذة صغيرة. لم أعد أحس بالوحدة، العزلة، الدمار، الحزن. لم أعد مكتئبا، شارد البال، أفكر في لغز الرسالة، فقد يكون هذا الرجل سبيلا لفك لغزها وتحريري من هذا الإرهاب النفسي الذي يطبق علي في هذه الزنزانة المظلمة.

لم أطلب منه في الواقع أن يحضر لي الكتب، إلا أن إجابته كانت تحتوي على كلمة لم أوظفها في التماسي: "الكتب". لأشك في كونه يتعاط القراءة، لأنه لا يوجد سبيل للنجاة من هذا الوضع المتأزم سوى قراءة قصص العظماء، السفر عبر الزمن النفسي للشخصيات والأبطال الخياليين. لأنه لا سبيل للنجاة من العزلة، عزلة الزمان والمكان سوى اللجوء إلى الأدب، إلى المسرح، إلى الخيال.

لقد كنت متأكدا أن فترتي الغذاء والعشاء ليستا مناسبتين للقراءة وأن كون وجبة الإفطار متجاوزة هو دليل واضح على كون الصباح وقت مناسب للقراءة. لكن لم يكن سوى توهم وفرضيات يمكن لأي سجين أن يفترضهم دون عناء أو مكابدة للهروب من الواقع، للتخفيف من شدة الفراغ.

انتظرت أسبوعا آخرا لكي أعيد صياغة طلبي. ما إن فتح الباب حتى تظاهرت بالبكاء، وقلت بصوت منخفض:

-إني أريد كتابا، إني قد سئمت الوحدة أرجوك أيها السيد أحضر لي كتابا أو قصة أو ألبوم صور أو شيئا من هذا القبيل. إني سئمت الحياة وسئمتني هي الأخرى، إني قد سئمت وأضلني الملل عن صوابي.

ليجيبني ببساطة ويقول:

- إنها ممنوعة.

لم أفقد الأمل في الحصول على كتاب، بل زاد يقيني أنه يتوفر ثلة من القصص الراقية والتي من دونها لم يكن ليؤمن بواجبه الأخلاقي تجاهي، إنه إنسان مثقف، واع. كل ما يمنعه من مشاركتي الكتب هو خوفه أن يسجن.

تناولت طبقي المعهود ببطء وأعدت الإناء إلى مكانه. استلقيت بعدها لأفكر من جديد في حيلة لأقنعه بطلبي وفكرت في أن أستعمل حجته لأقنعه. لقد قال إن إدخال الكتب والجرائد إلى

السجن هو فعل ممنوع وذو عواقب وخيمة تصل إلى حد السجن. كل ما أحتاجه إذا هو ثقته.

عند حلول وقت العشاء، كنت نائما بل كنت ميتا، حيث إنني لم أسمع صوت الباب ولا نداء الحارس، لأقضي ساعات طوال في انتظار الغذاء. انتظرت طويلا فلم يأت الرجل. بالرغم من أنني كنت أتدور جوعا لم أعر أمر معدتي اهتماما بقدر ما كنت منشغلا بما آل إليه الرجل. كانت تلك أول مرة يتعذر عليه المجيء. بدأت في طرق الباب والنداء بصوت مرتفع، جنوني. لم أتلق أدنى إجابة، خشيت أنه قد فارق الحياة، فجلست أنتظر وأؤلف الفرضيات حتى الفجر. لم يأت الحارس.

لم أقو على إغلاق جفنتي بالرغم من أن النوم داهمني تكرارا. لم أقو على الصراخ، على النداء، على طلب النجدة. إنه لا يوجد منقذ في هذا المكان إلا الحارس. لقد اشتقت له كما لم أشتق إلى "كورين" أو الحرية، لقد كان بالنسبة لي جزءا من الحرية. ندمت حينها على قتلي للصراصير وتمنيت بشغف عودة الأفعى. كنت في حاجة إلى قليل من الفوضى، أو الألم لكي أتجاوز هذا الإحساس بالموت. خلت أنني سأموت ولم ألتقي الحارس بعد. لقد أحسست برغبة لا

تضاهى في رد الجميل، في تقبيل يده أو رأسه أو رجليه وكانت تلك آخر متمنياتي.

ولأن الحظ آبى يوما أن يحالفني، لم تحقق أدنى متمنياتي في ذلك اليوم. اضطررت لأنتظر يوما آخرا كاملا. كما لو أنني وجدت لأنتظر، وكأن الانتظار أصبح مهنتي التي أزاولها دون مقابل.

حل الصباح من جديد وقد كنت نائما أغوص في أحلام وردية، كنت في الواقع أمارس رياضة "الكولف" في ملعب تكسوه الخضرة بجنوب "أستراليا"، ترافقني امرأة شقراء، جميلة، قليلة الكلام، ذات عينين زرقاوين، واضحة القسمات، عريضة الابتسامة، رشيقة؛ كان يصاحبني رجل أسمر اللون كثير الكلام كلما نطق ضحكت وكلما نطقت ضحك ضحكا هستيريا وكأنني مهرج سرك أضع قناعا ولباسا لرجل البهلوان.

ليس بعيدا عن الملعب وبالضبط بالقرب من منزل فاخر كان في ملكيتي، كنا نسمع في حين لآخر صيحات الفتيات وإيقاعات موسيقى "الروك" الصاخبة التي تضجر السامع لها. لنلتحق بعد ذلك بالمجموعة. كان كل الحاضرين رجال أعمال ومفكرين كنت

قد استضفتهم للاحتفال بعيد ميلادي الثلاثين. ما إن وصلت حتى بادرت بفتح قنينة لشراب فاخر كان قد أهداها لي أحد أصدقائي الفرنسيين لتتدخل رفيقتي وهي تبتسم قائلة:

- إن هذا الشراب شديد المفعول، سأفرغ لك القليل حتى لا تغيب عن الوعي، إنني في حاجة لك.

قبلت دون رفض اقتراحها، وما وإن لامست الكأس شفتاي حيث أيقظني صوت الباب الفولاذي؛ إنهم رجال الشرطة، جاؤوا للبحث عن الحارس. ربما لم يجب على هاتفه اللاسلكي، ليستغرق البحث عنه يومان كاملان. علمت حينها أنني في جزيرة منفية أو في نطاق جغرافي بعيد كل البعد عن الحضارة، عن الحياة.

أطلت على امرأة تبدو عليها الصرامة وتندفق من عيونها علامات الالتزام والسلطة. ألقت على التحية، لتغلق بعدها النافذة دون أن تنتظر ردي. أردت فقط أن أسألها عن حال الحارس فلم تعر ذلك أدنى اهتماما، لم تمنحني أدنى فرصة للسؤال. ليغلق بعدها الباب على نفس النحو ويعم الصمت المكان.

في المساء، حيث كنت مستلقيا على بطني مغمى على لا أحس ولا أشعر بشيء، فتح باب زنزانتي وحملت إلى الخارج، كانت تنتظرني مروحية عسكرية وبضعة رجال مسلحين. تلقيت بعض الإسعافات وكان أولها أن شربت بعض الماء لأستعيد وعيي، جلست بجانب الشرطية التي ألقت على التحية لأكتشف أنها ممرضة، سألتني قائلة:

- ماذا حل بالحارس؟ أسمعت أي صراخ؟ أكان أحد برفقته؟ أجبت في تردد خشية أن يتم اتهامي بقتله أو إلحاق الأذى به قائلا:

- كيف لي أن أعرف وأنا في غرفة مظلمة محكمة الإغلاق، لا أرى من خلالها سوى وجهه المستدير؟

ظننت أنه السؤال الوحيد الذي كنت سأتلقاه ذلك اليوم. إلا أننا كنافي طريقنا إلى مكتب الاستخبارات...

الفصل السادس: الرسالة الثانية

عدت إلى الزنزانة مباشرة بعدما أمر رجل- طويل القامة، حاد البصر، يرتدي بذلة لا تبدو عليها أدنى مظاهر الجمال، أو ربما لا توافق قامته، الشيء الذي أتلف كل جاذبيتها، - بإرجاعي فورا إلى الزنزانة وكأنه يخشى أن يراني أحد.

عدت وكان الحارس قد عاد واجتاز فترة النقاهة. ما إن وطئت قدماي الغرفة حتى داهمني برسالة أخرى، أظن أنه كان له حدس ما غريب وغير معتاد بما تحمله الرسالة من أخبار.

"أكتب لك من غرفتي القاتمة. أكتب وكم أود أن أواسيك في حالك هذا: السجن. السجن والبراءة، كلمتان لا سبيل لجمعهما إلا عن طريق التضاد. أكتب لك وسيناريو حياتي يطعمني كلمات وعبارات مرة أترجمها وأعدلها رأفة بك. إني لا أعلم كيف ولماذا تسببت في

تجريدك من الحرية، إنما ماتت ابنتي ومعها زوجتي وليس لي في الحياة أحدا يواسيني سوى قلبي هذا الثمل بالسواد وموضوعك. قبل أن تودعني زوجتي طلبت مني أن أنتقم لها ولم أجد لذلك سبيلا سواك، فابنتي هي الأخرى كانت لها أماني الأطفال. كانت تردد في كل المواعيد والأوقات هذه العبارة: "عندما أكبر سأصبح طبيبة أو مهندسة. فإن صرت طبيبة عالجت المرضى وأشفقت عليهم، وإن صرت مهندسة بنيت في الأرض قمرا يزوره كل عاشق في الليل." لقد كانت ذكية، فطنة، بريئة، مفعمة بالحياة.

الغريب.

لم أجد بدا من شتم هذا الكاتب الخائف، المذعور. وكأنه هو السجين وأنا الحر. حر في تأويل أقاويله البكائية، الروتينية. وكأنه أرملة عاشقة في أمير خرج إلى الحرب ولم يعد، فكرهت الرجال و" رائحة الصندل الذكرية" ونظرات العاشقين، المغرمين. كأنه عديم الكبرياء، أو لم يتبق من كبريائه سوى الأشلاء.

أرغمني محتوى هذه الرسالة على أن أترك للرجل رسالة عسى أن تصله في زمن ما. كتبت وأنا حائر أبحث عن الكلمات:

أنت رجل ضعيف ... تركت زوجتك تموت أمامك دون أن تحرك ساكنا. كالفهد المصاب، تقف الفريسة أمامه ولا يقوى على الهجوم. أو كالنمر حين يصطاد ما لذ وطاب من اللحم الطازج، لتأتي الضباع وتجرده من كل "إكسسوارات" مأدبته الشهية. هكذا أنت... إن شئت.

كالمنعزل عن القطيع، تفشل مرارا في إبراز فحولتك، فترفضك كل القطعان. ولا تحاول مجددا، كالكسول، الديوث، المهان. إني أعجز عن فهمك وأخجل منك. لكن، لن أكف عن لومك ولو تسببت في إعادة الزمن للوراء.

أنت لم يسبق لك-مهما كان منصبك أو شهادتك الجامعية- أن أحببت امرأة، ودعني أقول لك أنك لم تمد يد العون لامرأة فارقت الحياة ابنتها ولم تترعرع بعد بين أحضانها. لم تزوجها ولم تفرح لعرسها وعقيقتها. وأنت كالجبان تركتها تترامى من مستشفى إلى آخر ومن غرفة مظلمة إلى أخرى شديدة السواد.

الفصل السابع: الرسالة الثالثة

بعد مرور خمس سنوات على سجني...لا أذكر التاريخ بالضبط، داهمني الحارس من جديد ذات صباح قائلا:

- لقد جئت لاسترجاع الكتاب المائة. هل يمكن أن ترجعه لي من فضلك؟
- كتاب؟ أنا أقرأ الكتب؟
- نعم، ناولني الكتاب إنه على يمينك.
- على يميني؟ ألي يمين أنا أيضا؟
- نعم بالتأكيد، التفت على يمينك وستجده، ناولني إياه من فضلك...
- أنا؟ أناولك الكتاب؟ ليس لدي كتاب...
- بلى، ما بك هل فقدتك صوابك؟

- أنا فقدت صوابي؟ كيف؟ لا بالتأكيد لا. ما عنوان كتابك؟
- "فهم الفهم، مدخل إلى الهرمنيوطيقا: نظرية التأويل- من أفلاطون إلى جادامر."لعادل مصطفى.

ما إن ناولته الكتاب حتى ناولني رسالة أخرى...

" أكتب لك من مقهى شعبي مثقلة أنحائه بالغبار. إنك لن تتعرف على هذا المكان، إني أكيد. إني أكتب لك حين خطرت ببالي صغيرتي. على يميني أربع طاولات فارغات يكسوها غبار خفيف كالمزن، كذرات الأكسجين، وأمامي واحدة شبه فارغة، تحمل بشق الأنفس كوب قهوة باردة مرة المذاق، وكرسي خشبي مهترئ يحوي سيجارتين إحداهما مبتور شق منها، قلم أحمر وقداحة صفراء. أحس وأنا أكتب لك بنوع من الرغبة في الإغماء، في الذوبان، لشدة الحر واختلاط أنفاس المدخنين وأنفاس غاز "البوتان" وأنفاس بخار القهوة وآلتها البخارية. كل هذا لا يهم. المهم هو إنني في اللحظة عينها أفكر في المكان الذي يفترض أن نقضي في أرجاءه عطلة الصيف المقبل. فلم أجد بدا من التفكير في الجزيرة، تلك التي تتنفس الصعداء على متنها."

الغريب.

لم تعد كلمات هذا الرجل المهزوم ترهقني. إني أكثر منه حزنا وسبب حزنه لا يدعو إلى الحزن. لقد عرفت سبب سجني واكتشفت هذا السر وكرهت تلك العجوز التي لم تخبرني بكل هذه الأمور. اكتشفت سبب سجني هذا العشوائي الذي دمر حياتي المدمرة.

إني ظلمت. ظلمتني الحياة والوجود والناس. لن ألم رجلي الشرطة اللذان قاما باعتقالي. لن ألم أبي وأمي اللذان تركاني في بداية الطريق ولن ألم الحارس ولن ألم العدالة وبرد الشتاء وحر الصيف وضيق الربيع والحزن الذي سببه لي الخريف المتساقطة أشلاؤه من شدة الحريق.

أظن أنها آخر رسالة سأتوصل بها. أظن ذلك، لأن الحارس كان يستعد للمغادرة. لقد ذكرني بميعاد رحيله، حيث سيترك الباب الفولاذي للأبد. سيهجرني. لقد أكمل المدة المحددة في العقد. استنفذ كل شبابه وزينته ورشاقته تحت سطح لا سطح له يحرسني، وأنا تحرسني أفكاري وكوابيسي. هذا كل ما يجنيه

الإنسان في عصر الأرقام والعملات. سيودعني... سيودعني وأنا لست على الفراق قادرا ولست له مستعدا...

لقد ودعني الحارس وذكرني باسمه، وكانت تلك أول مرة سأتعرف على لقبه وقد كان سوريا، رحل عن "الشهباء" بعدما شاهد بقرة عينه إبادة أمه وأبيه وأخويه، تحت صعقات الغارات والقنابل المسيلة للدموع. واسمه "تيمور".

لقد أصبحت بعد رحيله متعبا جدا. وكلما منعت من النوم التقيت بواقعي يلف ويدور بين الوسادة والغطاء، يناديني تارة من الصفحة "الرابعة والثلاثين" من "اللص والكلاب" ومن الصفحة الأولى من "الغريب". كلما تجاوز الساعة منتصف الليل، أصبحت فريسة لماضي الحزين. إني لا أريد الرجوع إلى الوراء حتى لو كان ذلك اختياريا، لن أختر الرجوع. فكلما عدت اشتد وجعي وحزني وكرهت الماضي والماضي لا يلائمني. فليذهب إلى الجحيم كل من كنت أعرفه ولم أعد أراه بجانبي.

الفصل الثامن: الخريف رقم 15

بعد مرور خمسة عشر سنة في سجن انفرادي في العدم، خرجت يوم كانت السماء تمطر، يوم لم أتعرف على أحد، يوم أمسكت ورقة مكتوبة بالعربية، بخط واضح ونسيت الحروف، نسيت المعاني، نسيت كل شيء. أدركت أنها ترخيص للخروج من السجن. لكن، لم أكن مسجونا، لقد تم سجني فقط، فما فائدتها؟ ورقة بلا عنوان، بلا لا شيء. مزقتها وأخذت في السير. سرت ببطء لا أظنه إرادي، فلولا شعوري بالغربة، هذا الإحساس الرهيب، المدمر، لما جعلت بين الخطوة والأخرى فاصلا زمنيا تأمليا ليس بالهين. أسير وأمشي وأهرول وأتريث وأقفز وأتوقف وأبكي وأضحك لأصمت فجأة.

لقد تركت السجن أو تركني، لا أدري. إني أشك في صلاحية هذه الفكرة. أكنت حقا مسجونا؟ أكنت على كوكب آخر؟ في بعد أخر؟ في مستشفى الأمراض العقلية؟ أأنا موجود أصلا؟ كيف لي أن أدرك ذلك، فأنا وحيد أتعاط الظلمة والصمت. مريض، أكره الأصوات، الأضواء. غريب، دخيل، لا يعرفني أحد ولن يفعل. حتى الشرطيان لن يتعرفا على ولن أتعرف عليهما، وحتى إن تعرفا علي سيوليان وجهيهما عكس وجهي. سيتجاهلانني ووجودي. ربما أجد أسمائهم في المقبرة تنوب عن أجسادهم المتآكلة تحت التراب. كما قد يتزامن خروجي مع عودتهم من "الحج". وسيطلبان مني المعذرة ويتمنيان لي السلامة والهناء. سأرفض ذلك رفضا. إنها ليست ليلة عرسي لأتلقى التهاني والمتمنيات والقليل من الأدعية الارتجالية. إنني قد عدت ليس إلى الصفر، بل إلى ما وراء الصفر، لا معنى إذن ولا جدوى من التهاني واللغة الشعرية الفصيحة التحفيزية.

لا أعرف أحدا. إنه إحساس رهيب! لا أعرف أحدا ولا أحدا يعرفني. اشتقت إلى أمي وأبي وخبز أمي وإخوتي الذين لا أعرفهم وعماتي وخالاتي ورواد الأدب الذين تزامن صيتهم مع مرحلة الجامعة، حيث كنت عاقلا، منضبطا، شغوفا بالفن والأدب والقانون. أما

الآن، فلست طالبا، لست مواطنا، لا أمتهن مهنة، ولا أكترث لفاتورة الكهرباء، رسائل البريد التائهة أو ملصقات الإشهار التي تنتجها شركات الأسواق التجارية.

لقد مر وقت طويل على خروجي غير الصريح من السجن. كان يجدر بي أن أستغل الوقت. في الواقع، لم أكن له مستغلا. وكنت أقضي معظم أوقاتي في أبعاد الزمن اللامتناهية. أسافر تارة نحو المجهول وأزور أطلال المدينة تماما كالمجنون، تارة أخرى. أمضيت وقتا كثيرا في كتابة هذه الصفحات الفارغة والمليئة بالأخطاء اللغوية فقط كي أراسلك.

لا أريد أن أراسلك على الطريقة الكلاسيكية والتي ربما قد تكونين مللت كلماتها المتشردة. فأنا لست كلاسيكيا محضا كي أتقنها. كل ما في الأمر هو إنني أريد أن أراسلك. أريد ذلك عشقا وامتثالا لامرأة أسقطتني بها بماهيتها بعيونها العابرة للجسد والروح معا، شاقة بذلك طريقها وبملكية إلى لا أعلم، متجاوزة بذلك ثلة من الرسائل، الأعذار، المشاعر التي لم أعرها أدنى اهتماما إيجابيا كان أم سلبيا. كل شيء هنا أصبح ذا طابع سلبي حيث لا مجال للإيجابية إلا في الأحلام التي غالبا ما تنتهي هي الأخرى بالسلبية.

سأراسلك لسببين: أولهما لا أعرفه، وثانيهما كلام كثير أكاد لا أضبطه. لقد اشتقت لهذه اللحظات حيث في حضور المعنى تغيب الوسيلة، فوسيلتي ليست إلا كلمات متراكمة وليدة الانفعال والسرعة، كلمات تظنين أنها لغتي ولغتي لغة لا قواعد لها ولا نظريات. لغتي لا تحتاج إلى نحو، إنها في غنى عنه وعني أيضا. فأنا لست إلا وسيلة للغتي. لكن سأراسلك بالرغم من أنني لا أعرف عنوانك، سأكتب لك كل يوم وحتى وإن طلبت مني أن أكف سأراسلك بالرغم من أنني لا أعرف عنوانك.

سأكتب لك كلاما ربما تجدينه هناك حيث تدرسين، ربما أكون سؤالا سيطلب منك طفلك مساعدته في الإجابة عنه. ولن تتعرفي على الإجابة، وستدمع عيناك، وستندمين ولن يفيدك ذلك في شيء، فإن كان طفلك طفلي كنت سأحجب عنكما شعاع الشمس الشريد المتشرد الذي يوقظ الأمراء. سأغار عنكما من القمر والكواكب ولن يكون طفلك في حاجة لفهم سؤالي، فالإجابة سترهقه وتتعبه وتتعبك. سأجرد نفسي من فلسفتي لأعيش فلسفتكما الطفولية التلقائية، وأترك فلسفتي الوجودية العبثية السالبة السلبية. سأفعل ذلك حتما في زمن ما.

أما الآن، فأنا رهين حبل وشجرة بلوط ذابلة...

الفصل التاسع: الأمل الكاذب

لن أموت. فلي في الله ثقة عمياء، لن يجاري عنادها يأس. لن أموت فقط، هكذا بدون جدوى. ولن أموت شهيدا ولن أخوض غمار الأمل. سأظل نعم، ولم أضل. سأبقى ولن أمل. سأنتظر قسمتي ونصيبي، فاللبيب عندما يطعن والكئيب لما يحزن، يظلان بالحبال متماسكين، كمهاجري "أفريقيا"، أو كسكان "الأمازون".

لست من الموت خائفا: لا أهابها، كل ما في الأمر هو أن لي أمل في النجاة. لن أنتحر كما فعل "كوبن". لن انتحر فقد انتحرت حين بحت بسري لك وحدك وارتبط بفؤادك فؤادي وأصبح الفراق بالنسبة لك أمرا بسيطا ولم يعد لغيابي وزن.

لكن غروب الشمس على المنازل والأماكن يسرع من وتيرة تفكيري في الغروب أيضا. أتوسل كلما استطعت بالشمس بألا تتركني غائبا

عن وطني، تائها بين تفاصيل زمن لا أبعاد ولا أهل له. وإنه لم يدق أحد باب منزلي أو ربما لم أصادف بعد الباب الرئيسي. إني نسيت بأنني بلا عنوان.

لك في هذه الأرض ذكرى لا تفارقني، لا تذرني أعشق في أموال الحسناوات وعيون الجميلات من النساء. عنيد عشقي وعربيد أنا وعتيد هواك. أهواك ولم أعد أهاب أهلك وعرقك سيدتي بريطاني متكبر لا يقوى على تمثيله سواك. في أقصى بلاد الشام لي كرسي أراقبه من بعيد كالغريب حين يكون تحت تأثير شمس الغروب وحين يتعذر عليه اللحاق بالشمس المتجهة غربا، وعقلي في جنوب السودان يتدحرج في غثيان وشيخوخة أصابته قبل الأوان، لكنه يغوص في ماضي الفراعنة وأصالة العلويين وكبرياء الشام وفصاحة العراق. نعم لي هناك من الذكريات ما يملأ "بحر القزويني" شعرا ويغطي جبال الأطلس زهورا...

في غرفتي كذلك، لي من الأشياء ما يغرق "موسكو" أو "أرض نيكولا". لي صورك المبتسمة فيها ملامحك، والحزينة ... حتى صور الصدفة والسفر. لي ذكريات ورقية ملموسة وأخرى مجردة، غير مرئية ومرئية حين أراها. ولي في الفصول ذكريات أوقات عصيبة

وذكريات فرح وبراءة وأمل وأفكار طفولية. أراك في موجز الثامنة والسابعة والسادسة و.... الساعة الأولى من اليوم. أراك في إعلانات المشروبات الغازية والسيارات الفاخرة وعلب السمك وأفلام "ديكابريو" وأدب "شيكسبير" و "بيكيت" و" محمود درويش". أقرأ اسمك في التاسعة، مع كوب قهوة يتهيأ للتلذذ بطعم الرمان. وحروف الجريدة الفرنسية تتراقص في هوس وتترقب قراءة متأنية تذهب الملل وتحيي الأذواق، ك "رائحة التراب المبلل"، كرائحة الأقحوان الذابل، المائل.

رأيتك في مليون حلم، وكل الأحلام تلاحقني. فأنت سيدة عجوز، تثرثر تارة في المطبخ وتارة أمام الباب، تداعب الصغار من حين لأخر... وفي غفلة مني تتحولين إلى ممرضة أو مروضة أو معلمة قاسية، عديمة الحس "البيداغوجي" ولا تفقه في "الديداكتيك" شيئا. بينما أتعلم، أتعلم من أخطائك المنهجية واللغوية وسرعتك المفرطة في اتخاذ القرارات، تتحولين إلى راقصة، واضحة القسمات، نجلاء العيون، رشيقة ك " كاتي"، كرواد الفضاء يتراقصون في حضور الجاذبية.

أذكر أنني رأيتك حين كنت في الزنزانة مرارا. رأيتك جالسة بكبرياء تتحدثين إلى شخص غريب، انتابني إحساس رهيب بالغيرة ولم أجد بدا من متابعتك وأنت تتحدثين تارة وتبتسمين تارة أخرى بنوعٍ من اللامبالاة العبثية وأنا لم أعهدك هكذا. تتحدثين إلى غريب لا أعرفه وأنت مرتاحة وكأنك تتحدثين إلي. ظننت حينها أننا كنا في طريقنا إلى غرفتنا بالفندق وأن ذلك الشخص ليس إلا عابر سبيل يسألك عن اتجاه الشمال ولا يعرف أنك الشمال الذي افتقدته البوصلة.

رأيتك ذات مرة على متن قطار سريع، ولم أستطع الاحتفاظ بصورتك سوى لدقائق معدودات. كانت دامية، تبدو عليها آثار الدهر جليا. أذكر أنني كنت في حاجة لأسابيع لكي أتأكد فعلا أنها صورتك، وكنت كذلك في حاجة لأسابيع أخرى مرهقة كي أتناسى شكلك المثير للرعب. لقد كنت في حانة أتناول كأسا من عصير الرمان الروماني وكانت الأرجاء حولي مزدحمة، مليئة بالناس والأماني.

رأيتك أيا سيدتي بجوار حقول الربيع تشربين شايا معطرا بحبات "القرنفل" وأوراق النعناع. وأنت تشربين أتابعك ولم أكثرت لذلك

الغريب بقربك تائه لا يفقه شيئا في ملامحك، في نظراتك المليئة بالحزن. والصغار يلعبون وهم صغار لن ألومهم، والرضيع غارق بين أحضانك، يتباهى بثدي حنون ودفء لطالما افتقده أطفال "فلسطين و" العراق" و "اليمن".

على طاولة الفطور الصيفي، فوق التلال، رأيتك شاردة البال، عديمة الأمل، تحتسين عصير البرتقال البرتغالي، وعلى يمينك سيجارة إغريقية، وشاي تركي وموسيقى "جيبسي كينغ" تحطم القلوب وتطرب مسامع الرعاة المتجولين، المتنقلين بين غابات السافانا" وصحاري الجنوب.

على سطح القمر لمحتك وتابعت بشغف نزولك على سطحه كالريشة أو كحمامة سلام أرهقتها المسافة والجاذبية معا. رأيتك تتجولين بملكية وكبرياء وكأن القمر في ملكك أو أنه خجول من جمالك القاهر لكبريائه. رأيتك ترسمين وتثبين في الزوايا وترتبين الأثاث لتجلسين مرتاحة البال تطلين بفضول على الأرض وتعبثين مع شعرك الثابت، المثبت، والذي قد اشتاق للرياح. تتقدمين، وأنا ألاحظك، إلى الأمام ثم تتراجعين وكأنك "زها حديد" في محاولة توسيع القمر.

كمتابعي" سبيستون"، لا أمل من التدقيق في تحركاتك، بينما لست إلا في بعد خامس من الأحلام...

في الزنزانة، انتظرت عودة أو رسالة أو مواساة أو شيء من هذا القبيل ولا شيء منه تحقق. كل المواعيد: في الحلم والواقع، كلها خائنة، لم تف بالوعود، ولا زلت أنتظر وكأنني أنتظر "غودو" أو عودة "المسيح". لا زلت هنا، فلي أمل في الله أقوى من أقوى قوة.

أذكر كذلك قول الحارس:

" لا يعجبك نوار الدفلة، لا يعجبك زين الطفلة حتى تشوف الفعايل".

لطالما حدثته عنك وحدثني عنك وكأنه يعرفك أكثر مني. وكم حدثني عن النساء وكم حدثني عن صديقته "الصربية". لقد درس "الفيزياء" و "علوم الحياة" و" فلسفة الإغريق" وفلسفة "ابن رشد" و "الخوارزمي". درس في "القرويين" النحو وفي "الزيتون" الديمقراطية وفي "الأزهر" الأخلاق. لقد كان عالما، فقيها وفيلسوفا. لكن القدر شاء أن يورطه في حراستي. كان يطمح أن يؤسس مدينة سماها "مدينة من لا مدينة له". لقد كان دائما يردد هذه العبارة:

- في "مدينة من لا مدينة له"، ستنطلق "النهضة الكبرى". ولن يكون لها رواد لـ "عصر الأنوار"، بل كل من لا مدينة له. سأدرس فيها "الأركيولوجيا" و "علم الفلك" و "الفلسفة" و "الفيزياء" و "البيولوجيا". سأدرس فيها الشعر والنثر وفن الخطابة وعلم الأجرام والهندسة. لن أقيد من لا مدينة له بالزمن، فالزمن ألم مزمن، لا يسبب سوى الحزن.

لقد أحب "عبد الرحمان المجدوب" وتبنى مبادئه وتحلى بخصاله. حدثني عنك وقال لي أنك في حداد وأنكرت ذلك، حدثني عن حالك وقال إنك مريضة، كئيبة، تصارعين الموت، وكذبته. حدثني عن عيونك وقال إنها أصبحت غائرة، مختبئة بين الفكين، وتجاهلت ذلك.

لن أكذب على نفسي فأنا عاجز عن مجاراة واقعي هذا. أينما وليت وجهي وجدت الجو مضطربا، يشبه تماما أطوار إطلاق الصواريخ في الصحراء. كل شيء مبعثر في ذهني... سأنتحر حتما...

سأنتحر ولي في الله أمل أن يسامحني. إني سئمت حياة الذكريات وتعقب عطور النساء. كم أود أن أعود إلى مكتبي وأن يتم ترقيتي

كي أصبح إمبراطورا أو حاكما حكيما أو شيئا من هذا القبيل. كم أود أن أقابل أمي وهي تنتظر عودتي من المدرسة أو من السفر. كم أود أن أقابلك على السادسة، في المساء تحت إيقاعات موسيقى "رعاة البقر" وأمام المحيط وخلف الشمس، ينير مجلسنا القمر.

سأموت وموتي أيضا فإنه ليس للقائنا سبب وليس له غرض وليس لمجمعنا غاية. انسحبي جذريا، فأنا لم أعد رومانسيا، لأدلل مثلك من النساء وأنا في حاجة لمن يواسيني ويعيدني للواقع. لما لا تنسحبي؟ ما كل هذا العناد؟ ما كل هذه الفوضى وما كل هذا الغثيان؟ موتي فأنت كمعشوقة "الجخ"، إذ قال لها في غضب وهو يهواها:

موتي فالكلُّ هنا ماتوا وأنا اعتدتُ حياتي أَرْمَلْ.

واعتدتَ الهَجرَ بلا سببٍ وبرغمِ الحيرةِ لم أسألْ.

وظَلَلْتُ أسجّلُ أسماءً وأسطّرُ خاناتِ الجدولْ.

لكن، اعذريني من فضلك، أي لغة أتكلم إن غبت وأي أسلوب أنهجه؟ أي اسم سيراودني في الصباح والمساء وبعد "العصر" وقبل الفجر وعند المغيب؟

عودي إذن، ولا ترحلي للأبد، فصبري كالحصان، طويل الأمد. لا تهجريني هجرا ولا تذري حزني يتمدد. عودي من حيث الآن أنت ولا تحسبي حسابا للبعد. عودي أيا عود "الخروع" واحترقي إن شئت بين أشلائي وسألملمها كما يلملم البحارة الشراع. عودي فإن كنت في الشمال، أو الجنوب، فأنا في كل البقاع. عودي واملئي هذا الفراغ وانتشلي هذا الوحش بداخلي ولا تجعلي فرصة للوداع.

أو ودعيني، فأنا لا أكترث. افعلي كما شئت. عيشي كما يحلو لك وغني في الأوطان واتركي وطني هذا بلا قافية وبلا ألحان. لا شيء يهم الآن، ولا شيء يهم غدا...

إنه ليس للعدالة ذنب وليس للقانون ذنب، إنما الذنب ذنبك ولست أكتب لألوم أحدا غيرك. فقواعدي الثلاث لازلن قائمات وقواعدك الأربع قد خرقوا. وكيف يجدر بي ألا ألومك وألومك حتى الجنون وأشتمك بترف وإفراط؟

أمضيت سنينا في انتظارك وكانت هذه أول قاعدة. اعتزلت النساء وكانت هذه ثاني قواعدي. لا زلت في انتظارك ك "قيس"، وكانت هذه آخر قواعدي وقواعدك لا جدوى منها ومشرعهم لا يستحق لقب المشرع.

"الوفاء"، "الصبر"، "المكابدة" و "الحب"، هذه هي قواعدك الأربع. أتحسبين أني نسيت ذلك اليوم. كان الجو ممطرا وكان يمطر بخجل ويتردد في تحرير زخات المطر المتقطعة. كان الكل يتابعنا من قريب ومن بعيد بمناظيرهم "العسكرية" وكأنهم جيش" الفايكينغ" ونحن شعب" الهنود الحمر" ونحن لسنا إلا عشاقا مبتدئين.

الفصل العاشر: عودة مطر الرعد

بعد مرور سنوات فارغات وأسابيع خالية من أدنى درجات السعادة، تلك التي أرهقت "شوبنهاور" ورفاقه، وجدت نفسي في أعماق حي شعبي ب"الرباط"، أجمع القمامة وأفتش عن بقايا الطعام وبذل وسراويل لعلها تواتيني وترفع من مكانتي قليلا. أصبحت كالقرصان أسير من الشرق إلى الغرب ومن اليسار إلى اليمين أبحث عن قوتي، فلا الشركات متعددة الجنسيات ولا العابرة للقارات ستقبل بسيرتي الذاتية السادية.

لن تليق ملابسي هذه بموظف أو مكلف أو وكيل أو رقيب أو محاسب. ولن يليق مظهري هذا المتشرد بمعايير الموظفين الذين تنتظرهم ثلة من الأعمال والمسؤوليات التي لن أستطع لها تحملا.

أصبح كل العابرين في أرجاء "دوار الكرعة" والمتأخرين عن العمل والمسافرين وسائقي سيارات الأجرة والمهاجرين الأفارقة المتورطين بين ضفاف المحيط الأطلسي والطامحين في تجاوز الحدود الوهمية - وكأنهم متأكدون أن لهم في الضفة الأخرى شرابا ولباسا وحقوقا لطالما حرموا منها في أوطانهم المستعمرة، المدبلجة لغاتها والمطموسة هويتها - يراقبونني.

أصبح الكل هنا يعرفني ولا يعرفني. لكن الكل يتابعني ويسترق الأنظار بخجل مبالغ فيه وكأن بي عيب يرغمهم على تجاوزي تجاوزا كإشارات مرور لم يعد لها وزن في آخر تحديث لقانون السير.

أصبح الكل يعاتبني ويأمرني بالابتعاد عن طريقه وأصبح الآباء، وهو أمر أضحكني، يأمرون أطفالهم بالابتعاد عن منطقتي وأنا لا منطقة لي ولا حدودا ولا أنحاء كأنني شركة عابرة للقارات لا يمنع وجودها في العالم أحد.

كان هناك من البشر من أدمعت عيناه من حالي وحالي لا يرأف بي ولي أمل في لقائك ولا أبالي. كنت أبتسم في وجوه الصغار تارة وأحسدهم تارة أخرى على صغرهم فأشتاق إلى طفولتي. في

السابعة أنا نائم وفي التاسعة نائم والعطل ونهاية الأسبوع، أصبحت حقا لا أبالي وبالي ليس مرتاحا كي أناديك يا قمر الليالي.

أيا "كورين" كيفك؟ وكيف حال التجاعيد؟ أحقا تؤلمك أم أنك لست كأمثالي؟ كرجل آلي أنا وما بالرجل غير الفؤاد. كيف حال الابتسامة وهل لي بواحدة وإن غبت فأرسليها إلى خيالي.

نعم، كإشارة مرور أكل عليها الدهر وشرب، وكقلم شاء القدر أن يجف حبره قبل بداية القصص. كان لا يعرفني أحد. لست أبالغ ولا أبالي بالكذب أو الحقيقة فكليهما للوهم عملة واحدة. بقيت أفكر في مصير الآخرين مثلي ولا أظن أن لي شبيه أو قرين. فالكل تخلى عني، حتى الجرائد والصحف "وربورتاجات" الظهيرة وقنوات "اليوتوب" وصفحات" الفيسبوك" و"التويتر" لم تعر موضوعي اهتماما وبالرغم من أن لي قصة وأدبا وأحزانا لم يقم باستجوابي أحد، فأنا دخيل.

في الأحياء الشعبية دخيل، وفي الأحياء الراقية ذات الهندسة المعمارية ليس لي وجود، وليس لي دليل وإن دخلتها تهت أو مت أو سجنت. لن أدخلها فأنا لا أريد أن أسجن ثانية وإن سجنت سأحب

قدري كما زعم "ألبير كامو" وسأصدق بطفولية وبراءة أنه بحبي هذا سأنجو من قدري. وإن دعانا الوجودي إلى تخيل "سيزيف" سعيدا، فأنا لا أدعو أحدا ليتخيلني سعيدا في السجن إن حبست من جديد وحتى إن كان سبب سجني هذا جائزا، مبررا، مشروطا.

لا أعرف أحدا وكل الناس تعرف بعضها. ينزل ساعي البريد من دراجته فيهم الجيران بإلقاء التحية عليه ويدعونه لشرب الشاي أو القهوة أو عصير الفلفل السوداني المر. يعود المرء إلى وطنه وبحوزته جائزة أو شاحنة أو فتاة "سويدية" شاحبة اللون فيتكأكأ الكل عليه ويعانقونه، كأنه حرر فلسطين. ويمر الشرطي، متعال، متكبر، فيقف الإسكافي وسائق" الباص" والبقال لإلقاء التحية في ذعر وكأنه "عنترة بن شداد". إني لفي حداد وسرعة دقات قلبي تزداد وتجارب حياتي البئيسة تعاد وتعاد.

بين الفينة والأخرى، ثمة كلام كثير ولغو وحديث طيب يقال. ولست من أي حديث طرفا ولست مراسلا أو مراسلا ولست المقصود أو المنشود بأقاويل الناس واليأس دمرني.

أيا "كورين" ماذا لو عدت؟ ماذا لو كنت قد وفيت وغرت عني من الغيث وغربتي طويلة الأمد عن البيت؟ كنا سنقضي الصيف على" جزيرة " أو بين أحضان شجر الرمان والعنب وعصير "الأفوكا" يسقينا توتا وتوت البر يغذينا.

أيا نجلاء العينين استجيبي. مالك كالعالم حين يصمت؟ ما بك تتغاضين عن نداء "سيزيف" العبثي؟ ألست كالعالم كله؟ ألست الخير والشر والمتعة معا؟ ألست العاشقة والمنهزمة جراء نظراتي الثقيلة والمثقلة بالحنين؟ أيا شمس الخريف غيبي جذريا، نهائيا عن وجودي. انطردي، سافري إلى المريخ أو المشتري أو اشتري لك قمر زحل أو الزهرة. أيا زهرة أيلول ما بك؟ أنسيت أنك للربيع عروس؟ كيف ولما تخونين الفصول وتعبثين معي؟ كيف أقوى على مواجهة أمي إن بحت لها يوما بسري؟ وأقول لها هكذا بدون خجل أن امرأة سحرتني. ماذا سأقول لها إن سألتني؟ أنني رقيق المشاعر كالنساء؟ جبان كمن يسفك الدماء؟ كمن يقتل ويزني ويعاشر النساء وزوجته في العراء؟ لن أقو على ذلك.

في الصباح، وحين تشرفين على الخروج من البعد الخامس من الأحلام الوردية، يطردني رجل النظافة، وكأنه يعيد تمثيل جريمتك

وكل ما ينقصه هو جسدك. لقد طردني مرارا بغضب وكأن الحديقة زوجته وأنا نائم بقربها. في الواقع لم يطردني فقط بل طردني بضجر وعنف وإقصاء ولا مبالاة، وفي عباراته غيظ وحقد وضجر وجودي يحسب أني لم ألاحظه وملامحه تتسارع طالبة النجدة من كل شيء.

لا أبالي فلي أمل في لقائك على ضفاف نهر "النيل" أو في "بلاد الرافدين" أو "كولمار" أو ستراسبورغ" أو "هامبورغ" أو "بحر القزوين"، لا جدوى من المكان فكل الأمكنة، كل الأراضي، الأوطان، الشوارع، الأزقة، زوايا المساجد، أركان الكنائس، عطور الريحان تتسارع لاستقبالي إلا أنت وكأني وطن هجره الناس ولم يعد وطنا.

وفي المساء حين تستعدين للخروج بكبرياء وأناقة إلى المدينة أو إلى مقاهي الطرق الساحلية، أكون في صراع مع الأوجاع وبقايا الطعام ليست إلا بقايا، وما يترك من الطعام في هذا الوطن سوى المسموم والتالف والمر. ولا سبيل لمعدتي حينها سوى التمزق والألم.

عند الغروب، حيث الناس يستمتعون برنات طائر" الألباتروس" تترد على مسامعي كصوت "العندليب" أو "الشحرور" وأنا غارق، عاجز عن العبور إلى الضفة الأخرى كي أقابلك. وأراك ولست أعمى وأتابعك كالظل وأرافقك في شتى تحركاتك.

إني مستضعف كحشرة "كافكا" ومستلق على ظهري كالمريض. لا أركز حين أبكي وكل دموعي استنفذت على أطلال أمي. أيا "كورين" العذراء عودي، إني لست "ديكا بريو" ولن ألقيك على سكة القطار ولن أغريك ...

الحدادي كريم

الجزء الثاني

رسائل لم تقرأ

الرسالة الأولى

أما بعد، أكتب لك حروفي هذه من منفاي الذي اخترته بعناية ليوافي الشروط. لعلك تتساءل عن غيابي غير المبرر أو رجوعي الغير المتوقع أيضا. أبشر إذن، سأكتب أخيرا وأبرئ ذمتي، سأبوح بكل التفاصيل التي غلفت الأحداث الكبرى..

سأريحك أخيرا:

لقد ترامى إلى مسامعي بعض من أخبارك، فعصفت ريح الذكرى بكل عنف وارتجف مركبي قبل أن يتيه في ظلمات الماضي...

أتذكر الحارس؟ لقد التقيته وكانت صدفة خير من كل المواعيد لا لم أسافر الى "لوس أنجلس" إن كنت ستسأل. الآن وبعد أن تصدع السد الذي أمضيت سنوات في تشييده للحيلولة دون تسرب أدنى

بصيص أمل إلى قلبي، ها أنذا أخلف وعدي وأضربه عرض الحائط بيد مرتجفة أمسك قلمي وأكتب إليك.

أتعلم أن اليوم يصادف ذكرى لقاءنا الأول؛ في مثل هذا اليوم استسلم عقلي وألقى على اللوم! منذ أول حديث أدركت أنني لن أنجو منك أبدا. هذا ما كان صدق حدسي وتوغلت دون حذر، جازفت بي وسلكت طريق وعر ذو منعرجات عاطفية خطرة حيث لا أثر للإرشادات ولا لوحات تحديد السرعة. اللهم بعض الومضات الغامضة والمصحوبة بالعتاب على هيئة صداع مدمر. مرت السنين وكانت حياتنا عادية وهادئة على نحو غامض إلى أن جاء ذاك اليوم الغير عادي من "كانون الثاني" كان عصيبا وباردا وقاسيا جدا.

هناك في أقصى اليمين قرب النافذة رأيتك من بعيد تقلب صفحات الجريدة بملل لم تنجح في إخفاءه، أمامك قهوتك من غير سكر كعادتك كل صباح وكتابا يبدو أنك جلبته من أجلي. كنت قد اقتربت بمسافة كافية لأقرأ العنوان وألقي السلام، لكن تجمدت الكلمات حين هاجمك رجلين مسلحين وبعنف ألقوا القبض عليك مر المشهد بسرعة البرق وفي دهشة غامرة ولم تعد هنا.

لو لم أكن هناك يومها لقضيت ما تبقى من عمري أجلد نفسي على تركك وحدك في أشد اللحظات هلعا. لكنني كنت واقفة على بعد بضعة أمتار، راقبت كل شيء دون أن أحرك ساكنا. لا تسألني سببا لأني حقا لا أدري...لا مهلا لا تمزق الرسالة! رجاء تريث فللحديث بقية.

في ذلك اليوم احتجت الطبيعة بقوة، عصفت الرياح بقوة وصفعت النافذة المجاورة، فتناثرت شظايا الزجاج وتطايرت صفحات الجريدة في الممر المبلل مشكلة بذلك موكب مهيب لتوديعك. انتفض قلبي بين أضلعي وخفق بشدة لكنني تماسكت ولم أبك حتى. لا أعلم من أين لي بكل ذاك الثبات والبرودة كأنني ممثلة على خشبة مسرح أأودي دوري بلا اكتراث، أو مريضة نفسية تحدق في الفراغ بشرود.

كأن ما حصل لم يحصل أو أن الأمر لا يهمني ببساطة. تسمرت مكاني لم أحاول الركض واللحاق بك أو التلويح بيدي وكان هذا أول عهدي بالخذلان!

مكثت هناك استشعر بقايا أنفاسك، يومها أمطرت السماء بسخاء بينما فقدت أنا القدرة على البكاء. تجمدت كالمقرور وانتظرت عودتك لأخبرك عما حدث هذا الصباح انتظرتك لتهدئ روعي وتخبرني أن كل شيء على ما يرام، انتظرتك لتعطيني الرواية وتقول جملتك المعتادة " هذا كتابي بعضا مني اعتني به لأجلي وكفي عن تدوين الملاحظات على الهامش تشوشين بذلك خلوتي ". أمضيت اليوم كله بين انتظارك ومراقبة الباب علك تدلف وقد بللك المطر، ومراقبة من في القاعة وكأن الكل سار أنت، رأيتك في كل الوجوه. لكنك لم تأت!

مرت الساعات بطيئة أو سريعة لا أذكر، لكنني استفقت من شرودي مع حلول الظلام. كنت كالفقاعة المتجمدة قاسية جدا وفارغة من الداخل، احتضنت روايتك آخر ما تبقى منك وغادرت الكلية من غير رجعة. أدركت حينها أن حياتي انقلبت رأسا على عقب لكن الأمر لا يهم!

" كلما أمعنت التفكير خرجت من ذاكرتي أشياء منسية ...أدركت آنذاك أن بوسع إنسان لا يعيش إلا يوما واحدا أن يعيش بلا

مشقة مائة عام في السجن. إذ ستكون أمامه ذكريات كافية لتبعد عنه السأم. وكانت هذه مزية على نحو ما".

كان هذا المقطع من الرواية مميز بالأصفر، عرفت أنه أثار رغبتك في التقصير أو ربما التجربة... فالسجن لم يخلق للجبناء، بل للمبدعين الفنانين والمعارضين لأولئك الخارجين عن المألوف والساخطين، لكن ثمة أماكن شاغرة للأبرياء والمغفلين الذين وضعوا القانون كي لا يرحمهم.

يكفي أن تقع في ورطة لتكتشف أن كل المؤشرات كانت تحذرك لكنك لم تنتبه. تذكرت نقاشاتنا، خصوماتنا وكل المشادات الكلامية التي كانت تنتهي بنتائج مرضية. لطالما اختلفنا وتضاربت آراؤنا لكن الاختلاف لا يفسد للود قضية! هكذا قلت. استحضرت عنوة كل تفاصيلنا... تذكرت وتذكرت إلى أن أدركني الصباح وتوقف عقلي عن التفكير المباح.

مرت الأسابيع تباعا، وعرفت أنك سجنت بل نفيت في جزيرة نائية، بلا محاكمة وبدون جلسات استماع بدون أدلة أو حتى شهود. لعنت في سر مفرداتي، تخصصي والكلية بل كل ما يمت للعدالة

بصلة من قريب أو حتى من بعيد. لن أهدر طاقتي بعد اليوم في الدفاع عن مبادئي فكل شيء بات واضحا الآن.

البقاء للأقوى ولتذهب القوانين وواضعيها إلى الجحيم. لم يدرسونا التاريخ عبثا لكن لنعتبر، الكل يعرف قصة "غاليلوغاليلي" الذي دفع حياته ثمنا فقط لأن اكتشافه لا يوافق العامة واتهم بالهرطقة لأنه أكد أن الأرض ليست مركز الكون بل مجرد كوكب كروي الشكل وزيادة على ذلك إنها تدور... لكن مع استمرار ظاهرة تبني الآراء بلا تفكير والانضمام للقطيع فلا أمل يرجى من محاولة التغيير. لو أنك هنا لوبختني على كلماتي، كنت ستقول إن لم ننجح سنموت ونحن نحاول لكنك لست هنا! كنت استمد قوتي من وجودك بجانبي لكن الوضع بات مختلفا الآن!

دعنا من هذا، ولنعد إلى موضوعنا... عن قراري بالتخلي عنك لم يكن بمحض الصدفة بل عن قصد.

لأنني أعرفك كنفسي وأحفظ تفاصيلك الصغيرة التي لم تكن لتنتبه لها أنت نفسك، كنت متيقنة أنك حائر وضائع في دوامة من الحيرة؛ بلا شك لا تنام ولا تأكل كنت على حافة الجنون أو أقرب!

أنت تعرف أنه عندما يستقيم خط النبض يتدخل الطبيب وكآخر محاولة للإبقاء على حياة المريض يقوم بصعقه.

وأنت كنت بحاجة ماسة لصعقة لتنبض من جديد لتعود للحياة بنفس أقوى من الأول. ولكل هذه الأسباب قررت بكامل إرادتي وقواي العاطفية أن أخذلك! هجرتك وانأ مكرهة عن حب، اغتربت في وطني وأوهمتك بالهجرة، أردتك أن تكرهني عل كرهي يشغل بالك عن التفكير في مصيرك المبهم.

كما قال التبريزي: لا شيء أسهل من الكراهية، أما الحب فيحتاج إلى أنفاس عظيمة.

الرسالة الثانية

إلى الحاضر الذي لا يغيب أبدا.

إليك أنت.

بعد أن أسكرتني خمرة الشوق ونادتني الحروف لأكتبها تمنيت لو أستطيع إخراج كل ما يدور في مخيلتي من النقطة التي انتهينا عندها، ثم إني استغرب رغبتي في اجترار ماض لا يمضي لكنها الطريقة الوحيدة لإعادة تمثيل جريمتي على عدالتك، تأخرت قليلا أعلم ذلك كان يجب أن أباشر الكتابة منذ سنوات عجاف مضت خالية قاحلة استنفذت معها كل ذخيرتي قاومت وقاتلت إحساسي من أجل قرار لا أعلم إن كان صائبا أم خائبا. تغيرت كثيرا وما عدت أشبهني، أنا على قيد الحياة لكن أن تتنفس لا يعني أنك

حي وأن تكون فوق الأرض لا يعني بالضرورة أنك لست ميت في ذاكرة أحدهم.

لم أكن يوما نموذجا للفتاة الهشة المدللة، منذ نعومة أظافري وأنا أقاتل ببسالة كأنني ولدت على أرض معركة، واجهت مخاوفي وأخطائي وألذ أعدائي بقلب جامد لا يعرف التراجع.

كنت كالبطل الأسطوري "أوخيل" الذي غاص في النهر المقدس في صغره فاكتسب بذلك مناعة ضد الموت... رغم أنني رأيت من الحياة ما رأيت إلا أنني لم أهزم يوما، لطالما تكسرت رماح الضعف واليأس على صدري دون أن تفلح في إصابتي.

لكنني قتلت يوم كسرت النافذة في ذلك الصباح البارد من "كانون الثاني". يومها قتلت ورقصت أشباح الحزن على جثتي لا عجب فقد أصبت في مقتل! في كعب "أوخيل" الذي أحمله بين أضلعي.. في قلبي! كانت ضربة قاضية هذه المرة أفقدتني توازني وكسرت شيئا بداخلي فانسحبت أجر أذيال الخيبة واختفيت لأموت بسلام.

صدق الشاعر حين قال:

"لولا خيال في الدجى منك عادني لذاب مع الأنفاس قلب بأضلعي."

زارني خيالك أخيرا لكنه ظل صامتا بلا حراك، ظل يراقبني بصمت لبرهة ثم تلاشى.. لا زلت لا أفهم موقفك؛ هل أنت غاضب؟ مع أن هذا ما تمنيته يوما لكن الوضع قد تغير الآن ...

لما لا تكتب لي إذن؟ يقول "شكسبير":

" إن لم تجد من يستمع إليك فاكتب فالورقة كفيلة بأن تنصت لقلمك."

استكثرت فيا لعتاب وأنا التي وفيت التبجيل لحضورك الطاغي في عز الغياب؟ لما كل هذا الجفاء؟ أظنني كتبت بحبر الندم والحيرة كل أسبابي. ألم تقتنع بعد، أتظنني بحال أفضل؟

أنا امرأة عاشت حياتها تبكي أطلال وطن كان ولم يعد، غريبة مغتربة كالريشة في مهب الريح. تخليت عنك رأفة بك من التعلق بأمل كاذب، كنت كالطبيب الذي أوقف أجهزة الإنعاش عن مريضه ليخلصه من ألمه ويخرس أنينه؛ ثم يخرج بكل برودة ليعلن لعائلته أن فقدنا المريض... كنت كالزوج الذي تسبب بتهوره في

حادث لزوجته الحامل وفي لحظة غير متوقعة، أرغم على الاختيار بين حياة أحدهم لينهي الأمر بجرة قلم حارما بذاك طفله من الحياة ونفسه من الأبوة..

أتذكر يوم زرتك، كان لقاءنا باردا جدا وحديثنا بلا معنى هي مجرد كلمات تبادلناها وكأننا غريبين التقيا فجأة في مفترق الطرق لحظة من الزمن ورحل كل واحد لحال سبيله. قرأت يومها أسى لم تفلح في إخفاءه بإبعاد عينيك، كان مظهرك متعبا وبالك مشغول بأمور لا طاقة لي بمعرفتها. بعد أن غادرت بسرعة لتتخلص مني تأكدت أنك استبعدتني من حياتك، لم أنهار، لكن شيئا بداخلي تكسر للأبد.

غادرت السجن مترنحة أتمتم عبارات مبهمة والعبارات تملأ عيني. تمت مهمتي بنجاح سيكون بخير سيقاوم... ألم تلاحظي كيف استعجل خروجك؟ لابد أنه كرهك ولما لا يفعل لقد خذلته! وليكن رافقتك دعواتي القلبية أينما حللت وارتحلت...

يحضرني قول "درويش" وما أذكره إلا لأجلك:

"لم يقتلنا الحزن ولا فراق الأحبة لكنه جعلنا فارغين من كل الشيء".

تتسع رقعة الفراغ بداخلي يوما بعد يوم لدرجة تشابهت فيها أيامي وأضحت خالية جرداء كصحراء قاحلة تشتاق للغيث. وبين شروق الشمس وبزوغ القمر يمضي نهاري باهتا ومزاجي متقلبا بين لحظات صافية هادئة لا تطول وأخرى عاصفة تدمر الأخضر واليابس تستمر تقلباتي كأمواج في البحر بين المد والجزر ينتهي نهاري ليستلمني ليل قاسي ملثم بالغموض والأرق... كان التفكير فيما مضى ذريعة أتمسك بها لأعطي معنى لحياتي لأذكر نفسي بأن جزء من كياني هناك يتعفن في السجن وأن ما فعلته كان تضحية لا تقدر بثمن. سيفهم يوما أن قراري لم يكن جبنا وإنما شجاعة!

قلت لي يوما وحسب الأسطورة أن الإنسان الأول خلق غريب المظهر برأسين وقلبين كان الذكر والأنثى في جسد واحد، لكن غضبت الآلهة فشقته نصفين فهام كل نصف على وجهه يبحث عن نظيره وهكذا نشأ الحب. كتبت في دفتري كورين+ أنا = انسان قديم واحد، كانت نظرية جريئة تضرب عرض الحائط علوم الرياضيات والمنطق وتسخر من "النشاين" ونسبيته. لكن الآن بات

المجموع يساوي ثلاثة أنا وأنت وثالثنا الهوة الساحقة التي تفصلنا...

يقول "أفيدوس" صاحب أسطورتك العجيبة:

" إما أن تستمر إلى النهاية أو لا تحاول على الإطلاق"؛ لهذا سأستمر بالكتابة إليك حتى إشعار آخر.

الرسالة الثالثة

هذا اليوم كان غير عادي، أو ربما هو عادي فغاليا ما يبالغ الآخرون في ردود أفعالهم. استيقظت باكرا جدا ليس لأن الليل قد رحل لكن ألما في صدري كان يزداد حتى استحال معه النوم أو الراحة. قضيت الليل في السعال وحرارتي مرتفعة وصدري يؤلمني جدا. فكرت في الخروج قد تكون نزهة طويلة على الأقدام كفيلة لشعور بالتحسن سأذهب للحقول المجاورة وأبحث عن بعض الأعشاب التي اعتدت استعمالها في نزلات البرد وما شابه. لكني غيرت وجهتي بعد لحظات من خروجي لما لا أذهب إلى الشاطئ أنا بحاجة إليه أكثر من أي وقت ثم إنه يعيد لي بعض من الأيام الخوالي ...

كنت أمشي ببطء وأجول ببصري في الأرجاء، يبدو أن أمورا كثيرة تغيرت ثمة مباني كثيرة أنشئت وأخرى في طور الإنشاء، سيارات وأشخاص كثيرون جدد... كأن الزمن يركض فعلا ولا ينتظر أحدا إن تعثر. كل شيء يمضي بوتيرته الطبيعية. مازالت الشمس تشرق كل يوم يخرج الصغار للعب ويذهب الكبار للعمل بينما يكتفي العجائز بالمراقبة. لم يتوقف أحد عن ممارسة الحياة، يبدو أن كل شيء على طبيعته إلا أنا.

أوشكت على الوصول وقد نال مني التعب حين انتشلني من غياهب أفكاري صوت أحدهم ينادي بإسمي. صعقت! لقد مر وقت طويل على آخر مرة تبادلت فيها الكلام مع أحدهم، لا طاقة لي حقا في ذلك ثم إن الحمى تستطيب رفقتي. التفتت رغما عني لمصدر الصوت بوجه شاحب متجهم لأجده هو!

من بين كل الشخصيات الحقيرة التي كرهتها يوما لا يوجد من هو أحقر من" أيار" ابن خالتي المغرور آه كم أمقته. في مقهى مطل على الشاطئ وجدني قد اتخذ مجلسي ... لم يتغير كثيرا مازال يحشر أنفه في حياتي بخباثة ويناقش قراراتي على أنها قضايا رأي عام. مع كل كلمة يتفوه بها ألعن قراري بالخروج ألف مرة.. كانت الأجواء

مميزة الشمس تراقب من برجها وطيور "النوارس" صوت الأمواج كان كل شيء مريح لولا المتطفل الجالس هنا لكان الوضع أفضل.

استدرجنا الحديث إليك وإلى ذلك اليوم حيث توقفت حياتي لم ينس يوما أنني رفضته، يكن لي كل الكره وأكاد ألمس الشماتة في كلماته يظنني أدفع ثمن رفضي له في الماضي. في محاولة منه لبسط هيمنته كعادته أخرج مسدس الخدمة والأصفاد ووضعهما على الطاولة ثم مسح على جبينه وقال:

أين اختفيت كل هذه المدة؟ لم تسافري، أعلم ذلك!

أما زلت تعاقبين نفسك على سوء اختيارك؟ لو أنك قبلتي عرضي لكان حالك أفضل الآن أليس كذلك؟؟

بحثت عنك في كل مكان أما زلت تفكرين به؟ فليكن، افعلي ما يحلو لك مع أن الأوان قد فات لا أظنه حيا بعد كل هذه السنين.

وإن كان فلا أمل في حريته تتعبين نفسك عبثا ... يعز على أن ابنة خالتي المتكبرة هزمت.

كلماته... كأنها قذائف نارية.

استرسل: ألقيت القبض عليه أنا وزميلي كانون "ألم تكوني هناك؟ بماذا ورط نفسه ذلك المغرور؟ كثرت الأقاويل عن هذه القضية لم ننجح في كشف أي شيء كانت الأوامر من فوق.. كأنها قضية من العيار الثقيل!

كأنه مذيع يلقي ما في جعبته من أخبار لم يعرني اهتماما واسترسل يلقي بقذائفه علنا ...

انتهى أخيرا يرتشف مشروبه.. سمعت صوت إطلاق نار كانت ثلاث طلقات متتالية انتفضت "النوارس" ورأيت "أيار" غارقا في دماءه، سمعت بعدها صرخات رواد المقهى وصوت صافرات الشرطة من بعيد ثم غبت عن الوعي.

فتحت عيني بصعوبة، لم أنم جيدا ليلة أمس أذكر أنك كنت هنا وثرثرنا كثيرا ... هل أتيت فعلا؟ شكرا لمجيئك إذن فكل ما أحتاجه هو يديك لتمسحا غبار التعب عن وجهي لأستعيد وعيي. أشعر كأنني في قعر بئر مظلم وبارد فأسناني تصطك باستمرار والسعال اللعين يدمي صدري كما أن الهواء قليل يكاد لا ينعشني.

كانت الغرفة غارقة في البياض، الجدران والستائر والملاءات يا له من لون قاس على العين وصارخ؛ لطالما تجاهلته، لم اشتري يوما ملابس بيضاء ولا معدات أكرهه عندما يواجهني بقسوته في قمم الجبال ولوحات الرسم والدفاتر كنت أسعى دوما لطمس معالمه لكنه يلازمني بحضوره الملفت في وزرة المعلم والطبيب في المشيب والكفن والقبر... حتى السماء الزرقاء تطفل عليها بالسحب وعمل جاهدا ليحجب نور الشمس وضوء القمر...وفي علبة الأقلام الملونة لا أعلم لما هو هنا مع أنه يحتاج الكثير من السواد ليظهر أثره، يطاردنا الأبيض مثل شبح من المهد إلى اللحد.

أذكر أنني كنت أستيقظ للحظات وأعاود النوم، فتحت عيني مرة وكان رجلا بلباسه الأبيض كأنه جزء من أثاث الغرفة يقف إلى جانبي ويدون شيئا بعد أن انتهى أشار لأحد ما في الجانب لآخر من السرير من حركاته فهمت أنه يعطي تعليمات بخصوص التعامل مع المريض، يقصدني أنا!

وعندما فتحت عيني في المرة الثانية كان النور خافت والصوت مطبق عرفت أن الليل قد حل، سعلت كثيرا وارتبكت أنفاسي حاولت النهوض لكنني لم أقوى على تحريك رأسي فاستسلمت

للنوم ... جاءت الممرضة أخيرا كانت فتاة في العشرينات من عمرها بخفة باشرت عملها، جست نبضي ثم غيرت المحلول المغذي المثبت في ذراعي عندما هممت بالخروج استوقفتها:

مهلا! هل لي بسؤال لو سمحت؟

طبعا، تفضلي مع أن الطبيب سيقوم بجولته المعتادة بعد قليل ويمكنك سؤاله عن حالتك الصحية سيوافيك بكل التفاصيل بخصوص مرضك.

ليس هذا، لا داعي لسؤال الطبيب إنها نزلة برد حادة لا أكثر لكن هل أمضيت الليل كله هنا من أحضرني؟

أنت هنا منذ أسبوع كنت في شبه غيبوبة، لا أعلم من أحضرك لكن في باب الغرفة شرطيان وهناك تعليمات مشددة على إدارة المستشفى بمراقبتك ورعايتك، يبدو أنك على ذمة التحقيق.

ماذا؟! أسبوع كامل.. شرطة تحقيق، غيبوبة لكن كيف؟

غادرت الممرضة مسرعة لتعود بعد برهة رفقة الطبيب.. قال إنني قوية وهناك أمل، لم يفلح إطار نظارته السميك في إخفاء نظرات

الشفقة. ولأول مرة كرهت كوني لماحة فقد أدركت أن الأمر أكبر مما أظن. تنساب الكلمات من فمه بسلالة كالمياه في شلال خلاب، فهمت أن السعال والحمى والهزال ما هي إلا أعراض لداء السل الذي استوطن بصدري ونخر رئتي كما أنني في مراحل متقدمة من المرض والعلاج بات شيء روتيني لا أكثر.

بات الأمر محسوما الآن، سأموت قريبا! هكذا هو الوضع فلا داعي لتجميله بالمراهنة على الشفاء والتعلق بأمل زائف.

حالما يسمح وضعك، سأخبر الشرطة لإحالتك على التحقيق بخصوص الجريمة.

- حاضر...

مع أنني لم أفهم بعد أكان جادا أم هي مزحة ليخفف وقع كلماته بخصوص المرض لكن الأمرين سواء عندي!

مرت أيام طويلة لا أعلم عددها والوضع نفسه لم يتغير، لم أفلح في تذكر ما حدث وغدت ذاكرتي مشوشة وتبعثر شريط الوقائع، تحضرني بعد المشاهد على شكل ومضات ضوئية وتختفي

بالسرعة نفسها التي حضرت بها؛" أيار"، "دماء"، " نوارس"، شرطة"، "صراخ" ... لا أعرف أن كان ما أتذكره حقيقي أم من صنع أوهامي. لكن ما أعرفه حقا أن حياتي تتدحرج نحو المغيب.

الرسالة الرابعة

ها أنا ألبي نداء قلبي مرة أخرى وأكتب لك، بعدما فشلت في تجاوزك وحتى في أحلك لحظات حياتي أجدني أكتب إليك، يقال إن الكتابة بنت الوجع وأنا أعترف أن رسائلي ترهقني وتستنزف طاقتي لكنني أتمسك بها كما يتمسك الغريق بالقشة وكما يتمسك الأعمى بعكازه ليسلك درب الصعاب. أكتب بعدما أضحت دائرتي مغلقة وكل محاولات الهروب منك تفضي إليك ومع صمتك المستمر لا أكتب من أجل رد منك بل لأعطي معنى للوقت الثقيل الذي يأبى أن يمر. وأكتب عما آلت إليه حياتي من خراب في محاولة يائسة لفهم ما جرى.

أدون كلماتي للذكرى، أو بمعنى آخر، تخليدا للبؤس الذي حل ضيفا علي في آخر لحظات حياتي. أمتلئ صدري بمشاعر ما كنت

لأسمح لنفسي بتبنيها يوما؛ عرفت معنى الكره والحقد والهوان والمرض... أنا التي انفصلت عن العالم انفصالا حاسما كورقة انتزعت بالقوة من كتاب وبعدما عشت لسنوات كالسلحفاة في قوقعتي راضية بوحدتي بل اعتبرتها جزءا من كياني، وتحاشيت المجتمع بأفراده كراهب متعبد إلى أن بلغت حالة من الانطواء على النفس يصعب معها لقاء أي شخص. بين عشية وضحاها، اكتشفت أن الحياة رمت بي في قلب الضوضاء والغرباء في آخر مكان توقعته يوما ثم انه من الغير المناسب لشخص مثلي أن يقضي آخر أيامه بين المجانين.

حسنا، لقد كتبت لك آخر مرة عن مرضي بعدما أمضيت أياما لا أعلم عددها في المستشفى. كانت ثقيلة ومرهقة للحد الذي جعلني أتوق لاسترداد عافيتي ولو لوهلة من الزمن، اشتقت لعزلتي بكل قسوتها اشتقت للصمت والسكون.

لم يشفع لي مرضي وحالما سمح الطبيب المشرف على حالتي أحالوني على التحقيق؛ يعرفون أنني سأموت قريبا لكنهم يصرون على إجراءات روتينية لا جدوى منها. لأكن صريحة فأنا حتى هذه اللحظة لا أذكر تفاصيل كثيرة ولست متأكدة هل قتلته فعلا أم

أن مجرد وجودي في مسرح الجريمة زمن وقوعها يجعلني متهمة في نظر القانون؟!وفي غرفة صغيرة شبه خالية سوى من طاولة وكرسيين أمضيت نهارا قاسيا وبعضا من الليل.

كان التحقيق سخيفا والأسئلة روتينية مملة. سألوني عن اسمي، عنواني سني، حالتي الاجتماعية... كنت متعاونة جدا مع أنني عانيت في أول الأمر صعوبة في تذكر كل شيء لكن مع توالي الأسئلة تمكنت من إعادة بناء الأحداث وانقشع الضباب شيئا فشيئا عن ذاك الجزء من ذاكرتي بات كل شيء واضح الآن أنا قتلت" أيار" بسلاحه بثلاث طلقات متتالية مصوبة لرأسه.

في كل مرة يطلب مني إعادة نفس القصة يخيل إلى أنني أفلت بعض التفاصيل بالتأكيد ستبدو أقوالي متضاربة لكن هذا الأمر ليس ذا بال. نعم أزعجتني فكرة أن لا شيء يثير اهتمامي ولأنني سأموت قريبا تجاوزت الأمر، ترى لو كنت أعلم بمرضي هل كنت سأفكر بقتل" أيار"؟ إنه أمر محير حقا وأظن أن الإجابة ستكون نعم! لأن في كل الحالات "أيار" استحق بعض الشيء ما أصابه، ثم أني قتلته لأريحه وأريح العالم من أمثاله. كيف يعقل لتلك الثرثرة، التفاهة التي جرت في المقهى أن تنتهي بجريمة؟

وثمة سؤال آخر يعكر صفوي، لما غادرت المنزل كنت أنوي الذهاب للحقول المجاورة من أجل بعض الأعشاب لماذا غيرت وجهتي مع أول خطوة؟ يبدو الأمر أشبه ما يكون بكمين نصب بمكر...

لنعد للتحقيق؛ بصماتك على السلاح والضحية قريبك هذا ما أسفر عنه البحث الأولي، لماذا قتلته؟

- كنت ضحية استفزاز، ولوهلة انتابتني رغبة جامحة في فعل شيء شنيع جدا.

- هل خططت مسبقا لشيء كهذا؟

- لا لم أفكر حتى! كان يجب أن أفعل شيئا على وجه السرعة ومهما كلفني الأمر لقد مللت كون كل أفعالي مجرد ردود أفعال هل تفهمني؟ أردت أن أفعل شيئا بدوري...أردته مثيرا لدرجة يتغير معها مجرى الأحداث في حياة أحدهم كأن أنهيها مثلا!!

- هل أنت نادمة؟ هل كان حادث عن خطأ؟

- لست نادمة سيدي، ولم يكن خطأ.. تستمر الأسئلة من كل الاتجاهات لأنني حقا لا أعلم كم شخص في الغرفة لم أكلف نفسي عناء رفع رأسي وعدهم! كنت أتفوه بالكلمات وأنا شبه نائمة

... ولو أنهم أخبروني الآن أنهم سيحرقونني حية ما كنت لأحرك ساكنا.

يباغتني أحدهم بسؤاله، أما من أسباب أخرى؟

- بلى، قبل سنوات لم يفوت مناسبة دون أن يضايقني كان يعلم أنني لن أوافق عليه مع ذلك يتحين الفرص دون كلل ليعيد طلبه. كان يتدخل في حياتي بوقاحة كأن يراقبني ويسخر من قراراتي من عملي كليتي وحتى رفاقي، مرت سنوات لكنه لم يتغير، متعجرف ونرجسي يظن نفسه الأفضل دائما حتى أنه لم يتقبل فكرة رفضي له بعد كل تلك السنين، لا يزال يحمل في صدره غلا لا يخفيه.

أسوأ ما في الأمر أن قدرتي على الاحتمال لم تعد نفسها، كنت محمومة وأسعل سعالا طويلا أبصق معه دما. عوض أن يتركني وشأني عمل جاهدا ليحطم أسواري ويجتر خيباتي على مضض كان يكفيه أمر تافه كهذا ليشعر بالخطر لكنه استمر، كانت كلماته كأنها السم الزعاف. دعني أخبرك سرا سيدي: إن الأشياء الصغيرة جدا كالكلمات كفيلة بإفساد أشياء كبيرة كالحيوانات!

وتستمر الأسئلة المملة، لكن لم يكن لدي ما أفعله فاتخذت الأمر كنوع من التسلية.

- لماذا صوبت المسدس لرأسه؟

- لأنه أسوأ ما فيه، وهناك المنطقة المسؤولة عن قراراته ومن ثمة كلماته!

من جديد نفس السؤال. ألست نادمة؟

- نعم ندامة "الكسعي"! قاومت رغبة جامحة في أن أضحك وأقهقه ملئ صوتي لا لشيء لكن ليفهم السادة الأعزاء معنى أن يسخر أحدهم من موقفك لكنني عدلت عن هذا الرأي في آخر لحظة لن يفهم أحد أسبابي وأنا لن أكلف نفسي شرحها بعد الآن.

أخيرا وقعت محضرا طويلا بعدد الساعات التي أمضيتها هنا، لم أقرأ ما كتب لأن أحدا لم يطلب مني ذلك ولأنني كنت متعبة بما يكفيني. ثم إن" أيار" قد مات لا يهم مقتولا أم منتحرا، ما يهم حقا هو أن أتخلص منه ولا يبقى حيا بداخلي وإلا تعفنت ذكراه ولوثني عطن العواطف فإكرام الميت دفنه، وداعا إذن ولترقد روحك بسلام!

أتعلم ما هي وجهتي الآن لا لن تحذر، توقعت زنزانة في سجن انفرادي لم أحاكم بعد لكنني تخيلت كل شيء مسبقا؛ سيكتفي القاضي ببعض الأسئلة وبضع دقائق لينطق بالحكم: الإعدام شنقا في الميدان العام أو ربما سيقطع رأسي ماذا لو سمموني؟ فكرة تستحق التفكير لما لم تنفذ كعقوبة قاسية؟ "ربما هي أقسى من المقصلة! فهمت، قد تكون غاية القانون أسمى كيف فاتني هذا يجب أن يعاقب المجرم في ميدان عام يساق حي ويرجع جثة ...على مرأى العامة ليعتبروا، نعم العبرة! يكفي رأس كبش معلقا على مرأى القطيع ليخافوا ويرتعبوا ومن ثم يطيعوا. تجرفني الأفكار كالسيول... نعم كنت أقول أخدوني لآخر مكان توقعت زيارته مستشفى الأمراض العقلية أو وحدة الطب الشرعي لتأكد من صحتي النفسية واختباري إذ ما كنت تحت أي ظرف نفسي أثناء ارتكاب الجريمة هذا إن كان قتل مثل هؤلاء يعتبر جريمة، إذا كان القانون نفسه يسمح بدخول منتوجات تخلصنا من الكائنات المزعجة ويسمح ببيعها للعامة لماذا نعاقب على تعقيم بيوتنا؟ اللعنة! كيف نسيت أن سنان رجل قانون ويحق له ما لا يحق لغيره ...

لم يكن ترحيلي بسبب أقوالي أو حركاتي أثناء التحقيق أو بسببها لا أعلم. لكن حصل شيء آخر عندما أعادوني للمستشفى حيث أخضع لعلاج السل كما أصر الطبيب بدون استشارتي ولو أنه سألني لاقترحت الموت الرحيم لكنه لم يفعل. هناك صادفت امرأة في الحمام كانت نحيلة بشكل ملفت شعرها أسود تتخلله بعض الخصلات البيضاء ووجه التهمه التعب، لن أخفيك لقد أحدث مرآها أثرا أليما في نفسي. كانت نظرتها خاوية كأنها تحدق في فراغ لاحظت أيضا بعض الدماء على سترتها، لم تتحرك لكن عندما رفعت يدي لأربت على كتفها، صوبت إلى نظرة ذاهلة وقد خرجت للتو من تأملاتها وبالمثل رفعت يدها لكننا لم نتلامس، تراجعت خطوتين للخلف دون أن أحرك عيني عنها وللصدفة استمرت بمحاكاة كل حركاتي ...

تلك المرأة لم تكن سوى انعكاسا لصورتي في المرآة، تلك كانت الحقيقة عندما أقترب أكبر وكلما تراجعت للخلف أصغر في عين نفسي. فجأة انهالت على الوساوس من كل حدب وصوب؛ هل فعلا تصرفت بشجاعة أم أنني قدمت حياتي قربانا لصنم لا يسمن ولا يغني من جوع؟ لو أن الأمر كتب معكوسا ما تراه كان سيفعل؟

بالتأكيد سيأتي لزيارتي مرات متفرقة ثم تنقطع أخباره بعد أن يتيقن من مصيري المحتوم أولم أفعل الشيء نفسه لكنها كانت زيارة يتيمة باردة مع أن قراري كان لأجله... ليته يرد على رسائلي ولو بكلمة واحدة يكتبها "أنا حي". مع أن شخص مثلي يضع آخر اللمسات على لوحة أمضى عمره في رسمها من غير المجدي محاولة إصلاح أي شيء بل على نسيان ما مضى وتوقيع اللوحة بسلام ...

أخشى أنني قايضت حياتي العادية باللا شيء! باغت المرأة وكومت قبضتي بكل ما بقي في جسدي من قوة وفي اللحظة نفسها التي قررت مهاجمتي كنت قد هشمتها لكن عوض أن تختفي ظهرت عشرات النسخ الأخرى في الشظايا هكذا هي الأفكار القاتلة لا تموت أبدا بل تتضاعف عند اكتشافها وتنهش صاحبها حتى النخاع. أذكر أن يدي كانت تنزف وروحي أيضا نزفت الكثير من الألم وبكيت أخيرا بعد كل هذه السنوات بكيتك وبكيت نفسي أيضا ثم عزمت على تشييع ذكراك إلى متواها الأخير ...لأتفرغ لنفسي فيما تبقى لي من أيام.

"وفي أي يوم تراني وعدت

لقد كنت أكذب من شدة الصدق

والحمد الله أني كذبت!"

من ديوان محاولة قتل امرأة لا تقتل.

ليلى شاهد

الفهرس



منشورات
الطيوب
سلسلة
الكتاب
العربي